

دورية ثقافية معرفية
تصدر أول كل شهر
www.klmtuhaq.blog

العدد
03

سبتمبر
2017

klmtuhaq

مجلة كلمة حق - السنة الأولى - العدد الثالث - 88 صفحة

الحركات الإحيائية

- الثورة المزيفة
- لماذا هُزم تنظيم الدولة الإسلامية؟
- ويسألونك عن انقلاب الجزائر!
- أخطاء أمنية قاتلة
- محاولة لفهم العقل التفاوضي



محتويات العـــدد

السنة الأولى - العدد الثالث
أكتوبر ٢٠١٧



دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر

www.klmtuhaq.blog




klmtuhaq



الافتتاحية

سلسلة يجب كسرها

محمد إلهامي

يقال أن ديكا كان يؤذن كل صباح، فتضايق منه أحدهم فجاء إليه وقال: لئن أذنت مرة أخرى فسوف أذبحك. خاف الديك وكف عن الأذان وآثر السلامة. فجاءه الرجل بعد زمن وقال له: إن لم تصح مثل الدجاجات فسأذبحك! ارتاع الديك وتأفف لكنه آثر السلامة وحاكى صياح الدجاج. ثم جاءه بعد زمن فقال له: إن لم تبض مثل الدجاج فسأذبحك! حينها بكى الديك متأسفا وقال: ليتني مت وأنا أؤذن!

تلك قصة العلماء مع الطغاة..

لقد قال الله تعالى ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾، وقال: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.

لولا هاتان الآيتان وأمثالهما في المعنى لظن بل لتمنى الكثيرون من أهل الحق أن يتوصلوا مع الباطل إلى حل وسط، أو أن يكتفي الباطل بانتصار دون سحق وإنهاء.. لكننا اكتشفنا من تلك الآيات أن المعركة بين الحق والباطل صفرية.

يتحدث الكثيرون عن مشكلة التفكير الرغبوي، التفكير بالرغبة وبالتمني، وأكثر ما ينشأ نمط التفكير هذا حين يستصعب المرء خوض المعركة، فلا يزال يقنع نفسه أن التفاهم ممكن، وأن الحلول الوسط كفيلة، وأن الخصم لن يذهب في العداوة إلى كل هذا الحد! حتى تقع الواقعة أو حتى يفوت الوقت، ولات حين مندم!

أحرى الناس أن يعرفوا هذا هم العلماء بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فقد علموا وعلمونا قصة فرعون الذي لم يقبل من أحد أقل من الألوهية والربوبية فقال ﴿يا أيها الملأ ما علمتُ لكم من إله غيري﴾، وقال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. وحكامنا منذ وضعهم الاستعمار في بلادنا لم تلح لأحدهم فرصة إلا وقال مثل ما قال فرعون أو ترك الناس يقولون له كما قيل لفرعون، فإن شاعر صدام قال له:

تبارك وجهك الخلاق فينا .. كوجه الله ينضح بالجلال

وقال أكرم السعدني للسيسي مثل ما قاله ابن هانئ للحاكم:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار .. فاحكم فأنت الواحد القهار

وكان شعار حزب البعث:

آمنت بالبعث ربا لا شريك له .. وبالعروبة دينا ما له ثانِ

وأفطر بورقيبة في نهار رمضان ودعا الناس أن يفطروا وأراد أن يحمل العلماء على الفتوى، وقد كادوا لولا وقفة الطاهر بن عاشور وقولته العامة «صدق الله وكذب بورقيبة»، وهذا السبسي خريج مدرسته يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم، ولعله عند صدور هذا العدد يكون قد أصدر قراره بالمساواة في الميراث بين الذكر والأنثى.

من يحاول التعايش مع الاستبداد سيضطر إلى تحريف الدين ولن يُرضي المستبدين. ومهاودة العالم للطاغية هي كمهاودة الديك، لن تقف عند الكف عن قول الحق بل لا بد من قول الباطل وفعل الباطل والتحريض على الباطل!

وتلك الاعتقالات التي تعصف بالعلماء في السعودية لم تكن الأولى، ولن تكون الأخيرة كذلك.. ومن حاولوا قديما تجنب سطوة الطاغية وقعوا الآن في فخ أشد، ثم أولئك الذين يحاولون الآن إرضاءه سيقعون غدا فيما هو أفدح وأخزى.. حتى تصير الحال على فسطاطين: المنافقون الآكلون بدينهم في الخزي والخوف في بيوتهم وعلى أسرة السلطان! والثابتون في المنافي أو الزنازين أو القبور.. إلا أن أولئك درجات، فلا يستوي من مات وهو يؤذن مع من مات يرفض أن يصيح كالدجاج!

ينبغي كسر تلك السلسلة.. السلسلة التي يمسك الطاغية بطرفها يريد شد العلماء ووضعهم تحت أمره، ويمسك العلماء بطرفها الآخر تحدوهم الطمأنينة يتوهمون أن الأمر لن يبلغ تلك الدرجة. فإن لم يمكن كسرها من جهة السلطة بالعجز عن التغيير فلا أقل من كسرها من جهة العلماء بكسر اطمئنانهم هذا فيكون أحسن الممكن أن يفلتوا قبل وقوع الفأس في الرأس أو وقوعهم هم في السجن يُفتنون في دينهم ويُراودون عليه!

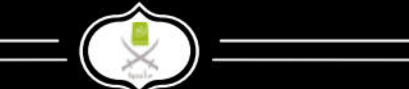
لا مصالحة بين القرآن والطغيان! ومقتضى التوحيد نزع السلطان عن البشر.. وتلك المعركة لم تنته أبدا إلى حلول وسط، بل إما هذا أو ذاك.

وبينما تعد المجلة للصدور، فجعنا خبر وفاة فضيلة الأستاذ الكبير المجاهد محمد مهدي عاكف في سجون العسكر بمصر، ولا نقول إلا:

عزاؤنا يوم ثأرنا.

وأما الشهيد فنحسب أن الله اصطفاه بالشهادة، وختم له بالثبات والأجر بعد العمر المديد المبذول في العمل وفي الجهاد وفي المحنة .. ولقد أخبرنا نبينا -صلى الله عليه وسلم- أن غمسة واحدة في الجنة تُنسي كل شقاء الدنيا.

رحم الله الشيخ الكبير المجاهد المعمر، وآجرنا في مصيبتنا وأخلفنا خيرا منها، ورزقنا ثأرا يبلغ شفاء الصدور.





علوم محرمة على المسلمين (٢)
إدارة المخاطر والكوارث

م. أحمد بكر

تحدثنا في المقال السابق (علوم محرمة على المسلمين) عن أهمية العلوم في قيام الدول، وأن بالرغم من صعوبة السماح للدول بالحصول على العلوم إلا أننا أوردنا التجربة الألمانية كمثال بعد الحرب العالمية الأولى ونجاحها في القيام بدولة غزت العالم بالرغم من الهزيمة وشبه الاحتلال التي كانت تحته.

وهناك العديد من الأمثلة الأخرى مثل الصين الحديثة؛ لكننا اكتفينا بمثال واحد للتدليل على إمكانية الفكرة رغم صعوبتها.

وإن كانت أوطاننا الآن تشكو من انعدام القيادات التي تمكن من تحقيق هذه النهضة، إلا أننا لن نعدم أن نعمل كأفراد وجماعات ما وسعنا حتى إن جاءت لحظة التنفيذ كان الأمر أسهل حينها.

وأول علم سنعرضه في هذه السلسلة هو علم إدارة المخاطر والكوارث، وهو من علوم الإدارة الحديثة، ولنتعرف بصورة أكثر عليه، لابد من تعريف كل من هذه المصطلحات التي تعتبر مجالًا مستقلًّا بحد ذاته.

إدارة المخاطر هو تحديد وتقييم ودراسة المخاطر، ومن ثم تقرير طرق معالجتها ومراقبتها والسيطرة عليها.

والخطر يكمن في كل شيء يحيط بنا كبشر من الولادة وحتى الممات، وقد تكلمت في العدد الأول من المجلة

عن خطة الطوارئ الشخصية على سبيل المثال، وهي تتعلق بالمخاطر التي قد تحيط بالإنسان في بيته، وهناك المخاطر في المشاريع المالية، ومخاطر الكوارث الطبيعية، ومخاطر الحروب، والقائمة لا تنتهي.

فواقعيًا لا توجد بيئة خالية من المخاطر بنسبة مائة في المئة، ومما يميز الدول الحديثة عن أنظمتنا المتخلفة هو وجود إدارة متخصصة ومعاهد أبحاث قائمة بتمويل كامل لإدارة المخاطر والكوارث.

وهو ما قد يدفع البعض للاعتقاد بالعلم الكامل في هذه الدول، ورفعها لمصاف الإله، وهذا من الحماقة فالموضوع لا يتعدى كونه مجرد علم وحسن إدارة، مما يجعلهم يستفيدون بأي ظرف حتى لو في غير صالحهم وتغييره إلى ما يفيد مصالحهم الاستراتيجية، وقد نستشهد بما مدح به سيدنا عمرو بن العاص الروم في معرض حديثه عنهم، فمما قاله: "وأسرعهم إفاقة عند مصيبة"، وهذا هو عين مفهوم التعافي من الكوارث (Disaster Recovery) كما يعبر عنه حديثًا.

كما أسلفنا فإدارة المخاطر يمكن الاستفادة منها في أوجه الحياة المختلفة فمثلًا استيقاظك صباحًا وذهابك للعمل هي عملية لها مخاطرها التي يجب عليك تقييمها ومن ثم محاولة تقليل المخاطر المتصلة بها، فذهابك للحمام فيه خطر الانزلاق، نزولك في المصعد فيه خطر أن يتعطل بك، قيادتك للسيارة فيها خطر الحوادث وهكذا. صحيح أن الكثير من هذه الأمور نقوم بها بشكل طبيعي ودوري؛ لكن يجب من حين لآخر أن تتحقق من استعدادك وجاهزيتك لمثل هذه المواقف.

ومرورًا بالمواقف اليومية المعتادة المعرض لها الأشخاص إلى المواقف التي تتطلب جهد مؤسسات الدولة لتلافيها مثل الحروب والكوارث الطبيعية، نجد أنه لا غنى للدولة المسلمة القوية أن يكون بها من يتخصص في هذا العلم على اختلاف مجالاته السياسية والاقتصادية والعسكرية.

فنأخذ مثلًا دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية تعاملها مع الأخطار والكوارث المحيطة بها، نجد أن من أبرز عوامل قوتها هي حسن الإدارة للأزمات.

مؤخرًا سمعنا عن إعصار ايرما وتقريبًا كل عام تضرب الولايات المتحدة أعاصير مهلكة، ناهيك عن مخاطر الهجمات العسكرية «الإرهابية»، الاضطرابات المحلية، الحروب الخارجية، كلها أمور تعرض أمن الولايات المتحدة ووجودها للخطر.



لذا قامت الولايات المتحدة بإنشاء العديد من الوكالات الحكومية للتخطيط لإدارة الأزمات والكوارث أهمها (FEMA, Federal Emergency Management Agency) ، وهي وكالة تابعة لإدارة الأمن الداخلي تم إنشائها عام ١٩٧٨ بأمر رئاسي.

مهام هذه الوكالة الأساسية هي التنسيق والتحرك في حال وقوع أي كارثة داخل الولايات المتحدة، ومجالها أنواع الكوارث المختلفة الوارد حدوثها، وتضطلع بالتنسيق بين السلطات المحلية لكل ولاية، وترصد لها ميزانية مستقلة، وهي تقريبا تتراوح ما بين ١٠ إلى ١٥ مليار دولار سنويًا.

كما أسلفنا من مميزات التخصص والاستعداد في الدول الحديثة ومنها الولايات المتحدة، هي الجهوزية العالية، والتوقع، والاحتفاظ بتصورات مسبقة لسيناريوهات مختلفة، حتى غير المنطقي منها.

على سبيل المثال هناك ورقة منشورة في موقع (FEMA) نقلًا عن مقالة مكتوبة في مركز السيطرة على الأوبئة (CDC)، يتكلم عن كيفية الاستعداد في حالة حدوث وباء يتسبب في انتشار الزومبي، نعم لم تخطئ في القراءة، هم يناقشون بكل جدية احتمالية انتشار وباء كهذا وكيفية مواجهته والاستعداد له.

لذا حين تحدثنا عن إيمان بعض الأشخاص في مجتمعات تعيش تحت ظل أنظمة متخلفة مثل دولنا العربية وإسلامية بأمريكا، وأنها تتلاعب بمصائر الأمم والشعوب كأنها آله، فهذا نابع عن الجهل، فالموضوع علمي بحت ويتعلق بإسناد الأمر لذوي الاختصاص، وهو توجه من صميم الثقافة الاسمية بالأساس، لولا أن ابتلينا بطبقة حاكمة عميلة تعمدت الإفساد وتجهيل الأمة.

ومفهوم إدارة المخاطر والأزمات هو من صميم ما يعلمه الإسلام لنا، ونلمسه في مواقف مختلفة في السيرة النبوية كقصة الهجرة، والغزوات المختلفة وأوضحها غزوة الأحزاب؛ حيث تضافرت عوامل خطر متعددة منها الغزو الخارجي والتهديد الداخلي من قبل اليهود، وبدأ مشروع دفاعي ضخم وهو حفر الخندق، كل هذه الأمور كانت عوامل خطر تعامل معها النبي صلى الله عليه، وبمشورة أصحابه رضوان الله عليهم بكفاءة تامة.

وحتى نربط العلم بتطبيق عملي لنأخذ مثالًا حيًّا نلمسه جميعًا، ألا وهو كارثة الانقلاب العسكري، الذي حصل في مصر يوليو ٢٠١٣.

لأن الأمور في الغرب تقوم على الدراسات المعمقة للظواهر الاجتماعية، السياسية العسكرية، الاقتصادية... الخ؛ فالانقلابات ليست استثناء عما سبق؛ فهناك دراسات كاملة معمقة عن الانقلابات، أنماطها، الأسباب المؤدية لها، وكيفية تلافي الأنظمة الحاكمة لها.

نظريًّا العوامل التي تجعل الانقلاب العسكري خطرًا على النظام من عدمه ثلاثة:

- قوة المجتمع المدني وتأثيره.
- شرعية النظام الحاكم.
- الانقلابات السابقة وتاريخها.

حكومة هشام قنديل، والرئيس المعزول محمد مرسي، وفي المجمل باقي القوى الإسلامية التي تمت معاملتها ككتلة واحدة بعد الانقلاب في التهميش والملاحقات بغرض الاعتقال والقتل أيضًا، تصرفت هذه القوى السياسية على اختلاف أطيافها ما عدا تيار الشباب الإسلامي المستقل ومعهم تيار الشيخ حازم أبو إسماعيل مع فرضية الانقلاب بالفرضية المستحيلة.

مع أن الانقلاب نظريًّا خطر على أي نظام حاكم مهما كان استقراره وقوته، مثل مخاطر أخرى تحيق بالدول كالحروب والاجتياحات العسكرية، مخاطر كوارث طبيعية... إلخ؛ لكن تم التعامل بتجاهل بل واستخفاف في بعض الأحيان بهذه الفرضية بالرغم من أن النظام الجديد جاء في وقت صعب بعد إزاحة مبارك وتولي المجلس العسكري لشؤون الحكم في البلاد لفترة حاولوا فيها بكل طاقاتهم أن ينقلبوا على الثورة الهشة.

لربما يعود الأمر إلى نقطتين: الأولى عدم استقراء التاريخ الواضح لتآمر العسكر على أي محاولة للتحرر من التبعية في مصر، والثانية عدم دراسة الموضوع من وجهة نظر علمية بحتة كنوع من إدارة المخاطر؛ حيث إن العديد من نظريات الحروب والثورات تتضمن الانقلابات كخطر يجب أخذه في الاعتبار.

فالأمر ليس محض دراسات نظرية فحسب؛ بل هي مهمة واجبة على القيادات الشرعية لمعرفة كيفية تعاملهم مع الانقلاب حال وقوعه؛ بل واستباق ذلك باتباع استراتيجيات من شأنها منع وقوع الانقلاب.

هاث وروزيت يشيران إلى أن القادة الذين يخافون أكثر من الانقلابات يرتكزون في الغالب إلى الاعتماد

على تخويف الجماهير من مخاطر الغزو الخارجي، (مما يذكرنا بعبد الناصر والقذافي)، ومن الأمثلة على ذلك حرب الفوكلاند بين بريطانيا والأرجنتين، التي كانت سببها خوف النظام الأرجنتيني من محاولة الانقلاب عليه.

تشير جوان لينز في كتابها (انهيار الأنظمة الديموقراطية) إلى أن أهم المؤشرات على انهيار الديموقراطية، حين يحتاج النظام الحاكم إلى التوثق من ولاء القوات العسكرية، وهو ما لمسناه مرارًا من تصريحات قيادات الإخوان وحزب الحرية والعدالة الحاكم، وآخرها التصريح الشهير لمرسي قبل الانقلاب بأيام معدودة عن (رجال مثل الدهب).

ويجب الحديث هنا عن مصطلحين قد يبدوان لأول وهلة متقاربين، إلا أن أحدهما ليس بالضرورة يعبر عن الاخر ألا وهما:

- خطر حدوث الانقلاب.
- احتمالية حدوث الانقلاب.

ولفهم الموضوع نضرب مثالين، الأول الولايات المتحدة حيث إن احتمالية حدوث انقلاب قليلة، بسبب تدابير وضعت من قبل المشرعين قانونيًّا، حرية الصحافة، ابتعاد الجيش عن التدخل في الحياة المدنية... إلخ.

المثال الآخر هو سوريا قبل الثورة الحالية؛ حيث لم تشهد انقلابًا منذ تولي حافظ الأسد السلطة في ١٩٧١، حتى تولية بشار السلطة في ٢٠٠٠ وحتى بداية الثورة السورية في ٢٠١١، أربعون عامًا لم تشهد انقلابًا واحدًا، ليس بسبب انعدام خطر الانقلاب؛ بل بسبب التدابير الاحترازية لمنع وقوعه مما قلل من احتمالات حدوث انقلاب عسكري.

الوضع المصري كان على النقيض، كان هناك خطر كبير لحدوث انقلاب مع احتمالية مرتفعة جدًّا شهدت عليها أحداث متتالية، لكن بالرغم من هذا لم يتم الاستعداد للحظة الانقلاب هذه.

ولنتحدث هنا قليلًا عن النقاط الثلاث السابق ذكرها، حول العوامل الداخلة في شدة تأثير الانقلاب ومخاطره على النظام، وأولها: المجتمع المدني ومؤسساته. فوكوياما وجويل ميجدال يبرزان دور منظمات المجتمع المدني والمؤسسات غير الحكومية في مواجهة الانقلابات العسكرية؛ حيث يتم مواجهة الانقلاب بتحريض الجماهير وعدم الانصياع لأوامر والتماهي مع القيادات الانقلابية؛ حيث إنه بغير وجود نقابات وأحزاب ومؤسسات غير حكومية قوية وفاعلة، فإن فرص مواجهة وإسقاط أي الانقلاب ستكون ضعيفة للغاية.

أما في مصر، فقد رأينا بوضوح كيف أن أغلب هذه المنظمات كانت مدعومة بشكل كامل من الجيش، وأحيانًا من دول خارجية، مثل ما تم الإفصاح عنه من دعم الإمارات بالمال لحركة تمرد، وهي الحركة الأساسية التي انضوت باقي المنظمات والأحزاب تحتها واستغلها العسكر لتمرير الانقلاب؛ بل والدفاع عنه داخليًا وخارجيًا.



ثانيا: شرعية النظام الحاكم، والشرعية قد يعبر عنها بإجماع أو توافق الشعب، الأحزاب، النخب، المؤسسات الحكومية والمنظمات غير الحكومية على حق الدولة بإصدار القوانين و الأحكام وتنفيذها.

والشرعية مهمة لا خلاف على ذلك حتى بالنسبة لقادة الانقلاب، أو أنظمة حكم الفرد الواحد أو الديكتاتوريات، تحتاج أيضًا لنوع ما من الشرعية وإن كانت مزيفة؛ لذا شهدنا استفتاءات تحت حكم عبد الناصر والسادات ومبارك، وحتى بعد الانقلاب بقيادة السيسي فإنه حاول القيام بالأمر بتمثيلية لإسباغ شرعية ما عليه بتعيينه رئيسًا مؤقتًا ثم دستورًا جديدًا، وانتهاء بمسرحية الانتخابات الرئاسية المقررة سلفًا نتيجتها.

ثالث هذه العوامل: تاريخ الانقلاب، حيث إن حدوث انقلابات سابقة في الدولة يشير إلى احتمالية تكرارها مرة أخرى، بصورة أكبر من تلك الدول التي تجنبت الانقلابات.

الخلاصة نرى أن أخذ الأمر بصورة علمية، والاستعانة بهذه العلوم الغائبة عنا ومنها علم إدارة المخاطر والكوارث، كان ليجنبنا أو على أقل تقدير كان ليعدّنا بصورة أفضل لمنع كارثة الانقلاب العسكري، عوضًا عن تخدير للقاعدة الجماهيرية الهائلة في أول أيام تولي مرسي للحكم، وظل التخدير قائمًا إلى ما قبيل الانقلاب، ثم فوجئت هذه القاعدة - وأظن أغلب القيادات أيضًا - بالانقلاب، ومن ثم ظل التخبط قائمًا بعد حدوثه إلى أن آلت النتيجة إلى مذابح واعتقالات بحق فئة كبيرة من الشعب.

مصادر

https://www.fema.gov/blog/19-05-2011/cdc-preparedness-101-zombie-apocalypse

إدارة الأزمة في الفكر الإسلامي - أ.د عبد الله الكيلاني

http://www.riskmanagementmonitor.com

Toward a structural understanding of coup risk – Aaron Belkin and Evan Schofer



ويسألونك عن انقلاب الجزائر!

الصغير منير

كان انقلاب الجيش الجزائري على الاختيار الشعبي الجارف للجبهة الإسلامية للإنقاذ (ج إ إ) في تشريعيات جانفي ١٩٩٢م، نتيجة ومحصّلة لمقدّمات كثيرة ومتشابكة.

فالانقلاب أولًا تمّ تسويقه أنّه مجرّد (توقيف للمسار الانتخابيّ) ليظهر كأنه إجراء مؤقت يتمّ من خلاله إصلاح واستدراك مواطن الخلل في العملية الانتخابية وبعض نتائجها غير المتوقّعة، التي كانت في الحقيقة صادمة للعسكر والعلمانيين وللغرب كله، وعلى رأسه فرنسا.

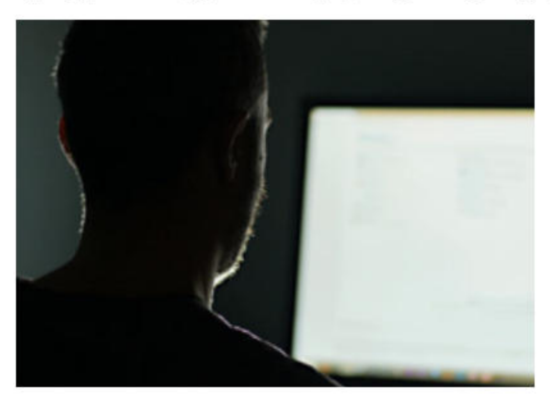
كان هذا التسويق إعلاميًّا بامتياز، روّجت له الجرائد والصحف المفرنسة والمعرّبة التي كان يسيطر على ٩٠٪ منها التيار العلماني واليساري الاستئصالي، بينما كان الشعب الجزائري يرى في الشارع انقلابًا صريحًا بكل أركانه ومقوماته.

الغريب أن الجيش وأجهزة الأمن الأخرى لم تنتظر استكمال الدور الثاني من الانتخابات التشريعية؛ بل سارعت في غضب وحقد غير متوقعين إلى استباق الأحداث بطريقة كان فيها من الغدر والبطش والنكاية ما لم يكن يتوقعه في الجزائر أحد إلا مرتكبوه.

والعجيب - وهو ما حدث مثله في مصر لاحقًا - أنه في الوقت الذي كانت فيه جرائد العلمانيين واليسار تحرض على الانقلاب تلميحًا وتصريحًا، وكانت مؤشرات تعفين الوضع أمنيًّا كمقدمة ضرورية جاريةً على قدم

وساق وبإشراف ورعاية جهاز الأمن العسكريSM آنذاك، وفي الوقت الذي هدّد فيه سعيد سعدي رئيس حزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية العلماني العرقي المتطرف الشيخ عباسي مدني رئيس الـ(ج إإ) صراحة ودون أي غموض في حصة مباشِرة على التلفاز بقوله: «لن نتركـكم تمرّون»، ونون الجماعة التي استخدمها سعيد سعدي كانت في الحقيقة تعبّر عن شبكة من المؤسسات الرسمية والأحزاب السياسية وهيئات المجتمع المدني والنقابات التي تجمّعت قبيل الانقلاب وبعده، في (لجنة إنقاذ الجزائر) سيئة السمعة والذكر. في هذا الوقت كان آخر من يتوقّع الانقلاب ويحسب له حسابه ويأخذ للأمر أهبته: هي قيادة الـ (ج إإ) !

لقد كان الانقلاب مُعدًّا له سلفًا، وتمّ فيه اعتماد مجموعة من الإجراءات كانت كفيلة بنجاحه لاحقًا على المستوى التكتيكي والاستراتيجي متوسط المدى؛ لأنه على المستوى الاستراتيجي البعيد أوقع الدولة كلها إلى يومنا هذا في مأزق الشرعية، ومع الانفتاح الإعلامي وانتشار شبكات التواصل الاجتماعي وتواتر شهادات السياسيين والضباط الفارّين والمتقاعدين وظهور عدد معتبر من الدراسات والكتب والمقالات - وإن كانت غير كافية كمًّا ومضمونًا - وانتشار تسجيلات الفيديو عبر اليوتيوب؛ مع حدوث هذا كله أصبح كثير جدًّا من الشباب الجامعي والمثقف ممن لم يعايش تلك المرحلة يشكّك في كل مواقف السلطة ورواياتها للأحداث ويتبنى خطابًا رافضًا لها أو على الأقل متحفظًا وناقدًا، ومن هنا تأتي أهمية التوثيق كتابة وإحصاءً وصوتًا وصورة لكل حدث مهما بدا صغيرًا ولا أثر له.



من الإجراءات التي تمّ اعتمادها في الانقلاب ما يلي:

١ إعداد وتحضير الإعلام المكتوب للانقلاب، من أجل تبريره و الدفاع عنه والتعتيم على كل ما يشوّش عليه ويعيق أداءه، وقد كانت شهادة الصحفي محمد فراح صحفي ثم مدير جريدة (مساء الجزائر) المفرنسة صادمة جدًّا وهو أحد كبار الصحفيين الاستئصاليين ومن أشد المدافعين عن انقلاب ٩٢، عندما تحدّث في مقال شهير له عن لقاء مديري الجرائد مع وزير الإعلام الاستئصالي الانقلابي أبو بكر بلقايد، والذي قال فيه إنهم يتوقعون أن يكون عدد القتلى جرّاء الانقلاب في حدود ٦٠٠٠٠ ألف قتيل، وهذا قبيل حدوث الانقلاب وأثناء التحضيرات الأخيرة له[١].

(١) معمّر فراح، عنوان المقال: خالد نزّار؛ من أجل أن ننهي قضيّة محاكمة سويسرا، جريدة مساء الجزائر، Le Soir d'algerie، عدد: ٢٠١٢/٠٨/١٣ https://youtu.be/omlb2wT4CjM

٢ التنسيق مع التيار العلماني واليساري الرافض للإسلام والمعادي له أحزابًا وجمعيات؛ لضمان تأييدها الكامل والذي كان في واقع الأمر مضمونًا مسبقًا؛ لأنهم كانوا أشد حرصًا ومطالبة بالانقلاب حتى من بعض ضباط الجيش السامين.

٣ استخدام شعبية جبهة القوى الاشتراكية في منطقة القبائل (البربر)، بقيادة الزعيم التاريخي حسين آيت أحمد ومعارضتها التاريخية للسلطة، بالسماح لها بمظاهرة ومسيرة ضخمة في العاصمة الجزائرية ترفض من خلالها حكم الإسلاميين، وتعتبره تهديدًا للجزائر وتشبّهه بالطاعون، وهو تحديدًا ما كان الانقلابيون يريدونه، وتمّ التسويق والتضخيم والاستثمار الإعلامي والسياسي لهذه المظاهرة الوحيدة كمبرر وغطاء يضفي قدرًا من الشرعية، كان الانقلابيون يبحثون عنها في كل مكان وعند كل أحد.

٤ استباق الانقلاب بفبركة وتدبير أحداث أمنية متفاوتة وموزعة على عدد من ولايات الجزائر، منها ما كان من تدبير وتنفيذ المخابرات مباشرة، ومنها ما كان اختراقًا وتوظيفًا لمجموعات جهادية صغيرة جدًّا ومحدودة في البداية، سيكون لها بعد الانقلاب حضور طاغٍ وأثر كبير وخطر عظيم.

٥ الاستنجاد بشخصيات تاريخية لها حضورها النضالي الثوري ودورها المميز في الحركة الوطنية وثورة التحرير، مثل علي كافي ومحمد بوضياف وغيرهما، واستغلال عدم تورطها المسبق في إدارة الدولة ومؤسساتها وعدم تلوثها بالفساد المالي والسياسي، وقد تمّ التمهيد لذلك قبل الانقلاب بمدّة عن طريق إرسال صحفيين بإشراف الاستخبارات لإجراء حوارات مع بوضياف وإخراجه من عزلته وتعريف الجزائريين به، وقد كان أكثرهم لا يعرفه ولا يسمع به، وكان ذلك تمهيدًا لاستخدام اسمه الثوري: سي الطيّب الوطني بعد الانقلاب وترؤسه للدولة، وبعد أن أدى دوره في إضفاء الشرعية على الانقلاب وتولّي كبر المحتشدات في الصحراء تمّ التخلّص منه بطريقة استعراضية باغتياله أمام الملأ وعلى مرأى ومسمع من الكاميرات والصحفيين، وهو ثاني اغتيال مصوّر على المباشر في العالم العربي بعد مشهد اغتيال السادات.

٦ استغلال التنافر على مستوى المكتب الوطني لـ ج إ إ ومجلس شوراها، وعدم اتّساق مواقف أعضائه في رؤاهم وتصوراتهم واختلاف مشاربهم الفكرية السابقة ومحاضنهم التربوية وانتماءاتهم التنظيمية قبل تأسيس الـ ج إ إ؛ لإحداث فجوة وشروخ خطيرة في الموقف من الانقلاب بل قبله حينما ظهرت ملامح نجاح الإضراب العامّ.

٧ ضمان تأييد ومساندة المنظمات الجماهيرية ذات الحضور الشعبيّ والتي كان كلّ كوادرها تقريبًا أعضاء في الأمن والاستخبارات أو متعاونين ومخبرين، واستغلال سذاجة قواعدها الجماهيرية وابتزاز قياداتها بالمصالح والمكاسب والامتيازات التي مُنِحت لها ومنها منظمة المجاهدين ومنظمة أبناء الشهداء والاتحاد العامّ للعمال الجزائريين واتحادات النساء والطلبة وغيرها، بينما لم يكن للممثلين والمغنّين - على عكس الحال في مصر - تأثير كبير في الرأي العام وتوجهاته، وقد أصبحت هذه المنظمات لاحقًا خزّانًا استمدّت منه المليشيات وفرق الدفاع الذاتي والحرس البلدي ثم خزّانا لحزب (التجمع الوطني الديموقراطي)، حينما احتاج الانقلابيون تأسيسه كواجهة سياسية تمثلهم وتعبّر عن مواقفهم.



٨ ضمان حياد بل تأييد حركة الإخوان المسلمين ممثلة في حركة (حماس)، التي أصبحت لاحقا حركة (حِمْس)، والتي لم تنلْ مقعدًا واحدًا في التشريعيات وكانت قيادتها تشعر بغبن وظلم تاريخيين، وبأن البساط سُحب من تحت قدميها وهي الحركة الأقدم والأوسع انتشارًا والأكثر تنظيما بزعمهم، حتى لقد بارك رئيس حماس يومها خروج الدبابات لحماية الديموقراطية[٢] واعتبر الـ(ج إإ) زجاجة انكسرت ويستحيل رأب صدعها وتجميع شظاياها!

وأصبحت الحركة عضوًا في المجلس الانتقالي الذي أسّسه الانقلابيون وحظيت بامتيازات غير قليلة في مقابل مواقفها تلك، رغم أنها لم يكن مرضيًّا عنها تمامًا وكانت تتعرّض بشكل مستمرّ للضغط والابتزاز، وكان الاستئصاليون في الإعلام يعتبرونها خطرًا مؤجّلًا ريثما يتمّ إنهاء وطيّ ملفّ الـ(ج إإ)، وحديث الإخوان في الجزائر ذو شجون.

٩ الحصول على موافقة وتأييد ومباركة فرنسا بعد الاجتماع الذي رتّبه وأشرف عليه الجنرال توفيق قائد الأمن العسكري بين الجنرالات: نزار وتواتي والعمّاري وبلخير، مع رئيس الاستخبارات الفرنسية: جان

(٢) تعذر على الكاتب العثور على التسجيل الذي تضمّن هذه المعلومة؛ لأنّ التلفزيون الجزائري لا يضع أرشيفه على الإنترنت.

شارل ماركياني[٣]، بل إن الدولة الفرنسية وأمنها كانت في الحقيقة هي عرّاب الانقلاب وحاميته والمستشار الأمين لمنفذّيه، مع ملاحظة أن الاجتماع تمّ في أحد مقرّات وزارة الدفاع ودون علم الرئيس الشاذلي بن جديد[٤]، وهو يدلّ على عمق الاختراق والتدخّل الفرنسيين وعمق التواطؤ والعمالة من جهة جنرالات العسكر المذكورين.

١٠ النجاح في كسب تأييد المملكة العربية السعودية بكلّ ما كانت تمثّله يومها من ثقل إعلامي وديني، بل قد ذكر الجنرال نزّار في مذكراته أنه حين زار السعودية والتقى بالملك فهد بعد مقتل الرئيس بوضياف، قال له الملك عن منتسبي الـ (ج إإ): «هؤلاء ليسوا مسلمين». ثمّ قال له: «العصا.. العصا.. العصا» كرّرها ثلاث مرات. وقد تحدّثت التقارير الصحفية يومها عن دعم سعودي للانقلابيين بـ ٣٠ ملايير دولار، وهو مبلغ كبير جدًّا في تلك الفترة، كما أن السعودية دعمت الجيش الجزائري بمدرّعات خفيفة وسريعة كان الجزائريون جميعا يتحدّثون أنّها سعودية وكانوا يسمّونها: فهد، نسبة إلى الملك وليس لسرعتها!(٥).

١١ تحييد التيّار الصوفي (الطرقي) الذي كان باستطاعته تثبيط وتخذيل أنصاره ومريديه وهم عشرات الألوف عن نصرة المظلومين، وكان يصمت تديّنًا أو رغبًا ورهبًا عن ظلم وجبروت وطغيان وإجرام رموز الانقلاب، مقابل السماح له بالانتشار واستعادة مواقعه وتأثيره، الذين فقدهما سنوات الصحوة وفي فترة الجبهة الإسلامية للإنقاذ (ج إ إ)، ولم يكن المطلوب من التيار الصوفي أكثر من ذلك.

١٢ اعتقال جميع قيادات (ج إإ) الوطنية والولائية والبلدية ورؤساء المجالس المنتخبة والبرلمانيين والدعاة وطلبة العلم والأئمة البارزين بشكل سريع ومباغت، ونقلهم إلى محتشدات الصحراء الرهيبة وقطع صلتهم بشكل كامل مع أهاليهم وإخوانهم في الحزب، ممّا أحدث فراغًا تعمّده الانقلابيون؛ وجد الشباب نفسَه بعده بدون قيادة ولا توجيه ولا معلومة ولا خطّة ولا موقف، فأربكه ذلك ودفعه إلى ردّات فعل غير محسوبة العواقب ولا معروفة المآلات، إضافة إلى الجهد السابق والموازي للاستخبارات في اختراق وتوجيه أولئك الشباب، الذين كان أكثرهم بين سنّ الـ ٢٠ و ٣٠ عامًا، وبدون ايّ تجربة سياسية أو تنظيمية أو أمنيّة كافية لمواجهة الواقع الجديد.

---

(٣) حديثه مسجّل على اليوتيوب https://youtu.be/Zy7BmBY1xg8.

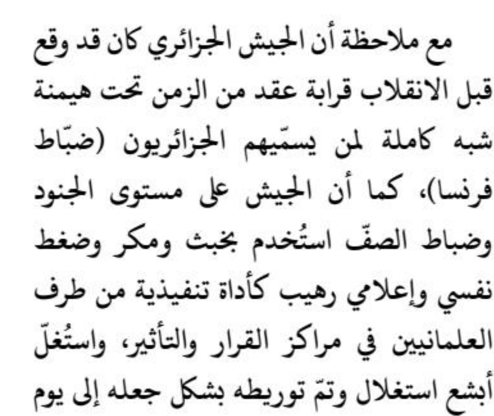
(٤) من قلب الحدث؛ مذكّرات النقيب السابق في الجيش الجزائريّ ١٩٧٨-١٩٩٢؛أحمد بن إبراهيم شوشان، ط١، أبريل (نيسان) ٢٠١٣م.

(٥) مذكّرات الجنرال خالد نزّار؛ ط:الشهاب؛ ٢٠٠٠م؛ ص: ٢٧٠-٢٧١؛ النسخة الفرنسية
https://www.youtube.com/watch?v=7sNrYiyKnx8

لعلي أقف عند هذه النقاط الاثني عشرة، والتي تلخّص الاستراتيجية التي اعتمدها الانقلابيون في ملامحها الكبرى وكانت سببًا في تمكنهم من إدارة الأزمة التي كانوا هم صانعيها.

إنها الاستراتيجية نفسها التي استخدمها العسكر في مصر مع تعديلات وإضافات، تتطلبها ظروف وسياقات وخصوصيات الأوضاع في مصر.

لقد كان العسكر عمليّين وواقعيّين وجادّين وجُرآء في تنفيذ مشروعهم الدموي، وكانوا حازمين وقساة وغير متسامحين بشكل رهيب مع كل ما يقف في طريقهم ويحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم، وكانوا على قدر من التناغم والانسجام والولاء فيما بينهم مكّنهم من الاستجابة للتحدّيات والنجاح في خطّتهم ولو إلى حين.





مع ملاحظة أن الجيش الجزائري كان قد وقع قبل الانقلاب قرابة عقد من الزمن تحت هيمنة شبه كاملة لمن يسمّيهم الجزائريون (ضبّاط فرنسا)، كما أن الجيش على مستوى الجنود وضباط الصفّ استُخدم بخبث ومكر وضغط نفسي وإعلامي رهيب كأداة تنفيذية من طرف العلمانيين في مراكز القرار والتأثير، واستُغلّ أبشع استغلال وتمّ توريطه بشكل جعله إلى يوم الناس هذا موضع تهمة وإدانة بالخيانة والولاء للغرب وأداء دور وظيفي قذِر لم يستطع التخلّص منها ولا الاعتذار والاعتراف بها ولا محاكمة المتورّطين فيها ولا نشر الأرشيف المتعلّق بها، وهو ما يحاول استدراكه منذ سنوات على احتشام وتردّد واضطراب في الرؤية والأهداف، فليس سهلًا أن يعترف الجيش وهو المؤسسة القوية المركزية أنه استُغلّ ووُظّف لمصلحة أطراف عدوّة للإسلام ولهويّة وانتماء الشعب الجزائري، وبيان أوّل نوفمبر الذي كان إطار المبادئ الإسلامية ثابتًا من ثوابته.

كما أنّ الجيش كان قد وقع بالتدريج تحت هيمنة وتأثير جهاز الأمن العسكريّ وتدخلاته وفساد وانحراف وساديّة ضباطه، ولم يكن وحده في ذلك وإن كان هو رأس الحربة؛ بل كان معه جهازا الدرك والشرطة، الذان لم تكن أدوارهما أقلّ قذارة وإجرامًا وإن كانت أقلّ ظهورًا وانكشافًا بسبب حضور الجيش السياسي ومظاهر عسكرة الانقلاب التي جعلت الجيش يبوء بإثم الانقلاب ونتائجه كلها وحده.

خلاصة ما حدث ويحدث إلى الآن

أن الجيوش العربية صُمّمت وأوكلت إليها وظائف ورُبطت باتفاقيات وعلاقات تدريب وتسليح، تجعلها حتمًا في مواجهة شعوبها إذا تحرّكت نحو المطالبة بالسيادة والحريّة والنهضة والاستقلال والتصالح مع دينها وشريعتها وهويتها وتاريخها.

وأنّ أي جيش يزعم غير ذلك سيبقى خطابه نوعًا من التخدير والخداع ما دام لم يُختبَر ويُمتحن في محطّات الصراع (المفصليّة)، ولم يظهر من آثاره شيء يجعل الشعوب الحرّة تثق به وتطمئنّ إليه بناء على أفعال ومواقف واستجابات واضحة ومعلنة، لا على أقوال عاطفية وخطابات مناسباتية.

وأنّ التحالف بين النخب العلمانية الاستئصالية والجيوش العربية تحالف عضوي، لا يستغني فيه أحد الطرفين عن الآخر برغم كلّ ما يمكن أن يحدث بينهما من الخصومات أو الاستقطاب أو سوء التفاهم أحيانًا.



وأنّ انتظار تفكّك هذه الجيوش أو سقوطها أو توبتها وعودتها إلى أحضان شعوبها وتبنّي قضاياها والدفاع عنها والتصالح معها، هكذا بدون خطّة أو جهد يؤدّي إلى ذلك - من داخل الجيوش أو من خارجها - وهْم جميل وحلم لذيذ، يثبّط كثيرًا من الساعين إلى التغيير ويخدّرهم ويشلّ قدرتهم على الإبداع والتجديد في تفكيرهم وخطابهم وأدائهم.

وأنّ استراتيجية الأنظمة الوظيفية ومؤسساتها لم تتغيّر إلا في التفاصيل، كما أن تعامل حركات التغيير مع هذه الاستراتيجيات وردّات فعلها تجاهها بقيت هي هي، لم يستفد فيها اللاحق من السابق شيئًا إما استخفافًا وتجاهلًا أو غباء وجهلًا أو عنجهية وكبرًا.

إنّ هناك غفلة كبيرة عن سنن التغيير والتمكين (كما هي) لا كما نريدها ونتمنّاها نحن، وهناك عاطفيّة ومثاليّة مَرَضيّة في التعامل مع الأحداث والأشخاص، تشكّلان تهديدًا لأيّ مشروع مهما كان عدد أنصاره وعمره التاريخي وتضحياته وإيمان أصحابه به .

وهذا حديث آخر..



الحركات الإحيائية
نموذج عبد الله بن ياسين مع قبائل البربر

محمد وفيق زين العابدين

الحركات الإحيائية أو التنشيطية هي إحدى صور التغير الثقافي والاجتماعي الجذري، ويُراد بها مجموعة الأنشطة المُتصلة المقصودة لإحداث أثر مُعين يقوم بها أعضاء جماعة ما بهدف بناء ثقافة تضمن لهم إشباع أفضل لرغباتهم وقيمهم، ويتحقق ذلك من خلال قبول نمط من التجديدات المُتعددة المُمكنة، يقوم بصياغتها فرد أو أكثر كوسيلة للتغيير الاجتماعي عبر وَصلهم الماضي بالحاضر وإعطاء رؤية للمُستقبل.

وتختلف عن صور التغير الثقافي الكلاسيكية، كالتربية، والتطور، والتغير التاريخي، وغير ذلك، في أنها قصدية مُتعمدة للتغيير من قِبل أعضاء الجماعة الإنسانية، لذلك تحدث في فترة قصيرة نسبيًا، في حين أن صور التغيير الكلاسيكية عملية بطيئة، متواصلة ذاتيًا، حتمية يتعذر تجنبها [1].

وبعض الأساتذة أضاف في تعريفها وخصائصها صفة «التنظيم» [2]، وهي محل نظر، لأن بعض العمليات الإحيائية تتم بنوع من العشوائية أو الفوضوية، كما أن مراحلها في كثير من الأحيان مُتداخلة مُتشابكة لا يُمكن تمييزها بصورة مستقلة، وهي دينية في طبعها في الغالب، ونسبية تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر متوقفة في ذلك على قوة عناصرها الجوهرية.

ويُعد الأنثروبولوجي الوظيفي أول من أشار إلى هذه العملية باعتبارها إحدى إفرازات تأثير الشخصية في

(1) Eiko Takamizawa; Revitalization Movements Theory and Japanese Mission, Torch Trinity Journal, 7 (2004), P. 168.

(٢) د. عاطف أمين وصفي: الثقافة والشخصية (الشخصية ومحدداتها الثقافية)، دار النهضة العربية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٨١م، ص ٦٨.

الثقافة، عبر كتابه Religion An Anthropological View [٣]، من خلال مراقبته وتتبعه لبعض المراحل التاريخية للحركات الدينية المنظمة التي بذلت جهدًا واعيًا متعمدًا لبناء ثقافة أكثر إرضاءً من تلك المُستبدلة المُفككة التي لا تُلبي احتياجاتهم الأساسية، وهي ليست ظواهر غير عادية، بل هي ظواهر متكررة في تاريخ البشرية.

وتستند الحركات الإحيائية إلى مفهومين أساسيين:

الأول هو الضغط Stress**، والآخر هو طريق المتاهة** Maze Way**.**

فالتغيير الاجتماعي الجذري ينطلق في الأساس من ضغط وتأثير بعض المواقف العصيبة المُؤلمة، ووفور الخلل في جميع جهات المجتمع، ابتداءً من حالات المحو الثقافي التي تحدث نتيجة الاستعمار والهزائم العسكرية أو الحروب الأهلية أو الإبادة الجماعية أو الأمراض الوبائية أو التغيرات المناخية والبيئية الشديدة كالبراكين والزلازل، ومرورًا بالتشوه الثقافي الذي يحدث من الاضطراب الثقافي والتفكك الاجتماعي نتيجة استيراد القيم والعادات الغربية أو شدة التهميش الاجتماعي والاقتصادي أو طول مدة الاستبداد السياسي وعنفه.

فالمجتمع أشبه ما يكون بالكائن الحي، إذ يعتمد في بقائه على آلية التوازن، وهي الآلية التي يحاول النظام الاجتماعي الحفاظ بها على حد أدنى من التماسك قِبل أي تغير يُصيب جزء منه أو يُهدد بذلك، حيث تعمل على اتخاذ تدابير الطوارئ اللازمة في ظل ظروف التغيير لضمان ثبات المصفوفة الاجتماعية [٤]، لأن الإنسان الذي هو الحد الأدنى من مفردات هذا المجتمع غير معتاد على التغيرات الحياتية الجذرية.

لكن المجتمع في بعض الأحيان يواجه من الضغوط ما يُربك توازنه تمامًا، ولا تستطيع تدابير آلية التوازن العادية الحد من آثار هذا الضغط العنيف ومقاومة الظروف الضاغطة التي تهدد النظام الاجتماعي وتحول دون استعادة توازن المجتمع.

ويكون لعوامل الضغط الشديدة تأثيراتها على المستوى الشخصي والمجتمعي، التي تتسع لتشمل: تمزُّق العلاقات الإنسانية، الأزمات العاطفية، التفكك الأسري، الارتباك الوظيفي، فقدان الشعور بالقيمة الذاتية، الانهيار النفسي، اللامبالاة الأخلاقية، وفور الفساد في جهات الدولة، انتشار المُغيبات العقلية والثقافية، إلى غير ذلك من التأثيرات.

(3) Anthony Wallace; Religion an Anthropological View, New York, Random House, (1966).

(4) Anthony Wallace; Revitalization Movements, American Anthropologist, 58 (1956), P. 265.



أما مفهوم طريق المتاهة Maze Way فينطلق من احتياج كل فرد في المجتمع وكجزء عضوي منه إلى وجود صورة ذهنية للمجتمع وثقافته، هذه الصورة الذهنية تساعده بشكل تلقائي في التغلب على التوترات على جميع المستويات، والحد من آثارها، كأشبه ما تكون بالطريق المحفوظة للخروج من المتاهة(٥)، والحفاظ على النظام الذي يوجد في نهاية هذا الطريق والذي ينزع له كل الأفراد بغض النظر عن اختلافهم حول صورة هذا النظام ومكوناته ومستوياته.

لكن مع الضغط المتواصل، لا تستطيع أن تفي الصورة الذهنية للفرد لإخراجه من هذه المتاهة، وبعبارة أخرى لا تكفي ثقافته للتقليل من مستوى الإجهاد، فيُصبح مُخيرًا بين خيارين كلاهما صعب، إما الحفاظ على الطريق المُعتاد للخروج من المتاهة مع تحمل الإجهاد المُتكرر والمُستمر، أو البحث عن طريق بديل للخروج منها، وهو جوهر العملية الإحيائية أو حركة التنشيط الاجتماعي.

فالشعور بعدم الرضا عن الثقافة السائدة وحده لا يكفي للخروج من المتاهة، والنية المتعمدة للتغيير وحدها لا تكفي للخروج من المتاهة .

ومعظم الحركات الإحيائية تتبع – في الغالب – برنامج تدريجي قريب الشبه بشكل ملحوظ، هذا البرنامج يشمل مجموعة من الأدوار، والمسئوليات، والأدوات، وآليات التحكم الضرورية لتوفير إشباع كافٍ للحاجات الأساسية والقيم المشتركة.

ويُمكن القول إنها تتشكل من أربع مراحل أساسية:

أولًا: استقرار نسبي:

وفي هذه المرحلة يواجه المجتمع بعض أشكال الضغط لكنها تتفاعل مع المجتمع ضمن حدود مقبولة لا تتغير معها حالة الاستقرار النسبي، حيث يتبع الأفراد تقنيات وأنماط ثقافية محددة لتلبية مُتطلباتهم

(5) Anthony Wallace; Revitalization Movements, Ibid. P. 266.

وحاجاتهم بشكل مُرضي.

ولا تخلو هذه الفترة من تغيرات ثقافية، لكنها بطيئة غير مُؤثرة ولا يُقاسي منها الأفراد في الغالب الأعم، وعلى الرغم من بعض الحوادث التي يُخفقون معها في تحقيق توقعاتهم وآمالهم، لكن ذلك لا يستدعي تغييرهم طريقة معالجة الأمور والتغلب على الضغوط المجتمعية، إذ يستطيعون تحمل التنازل عن بعض الحاجات أو إهمال بعض المُتطلبات للمحافظة على استمرار النظام القائم.

فغالبية الناس يُفضلون التسامح في حقوقهم وحرياتهم حتى مع المستويات العالية من القلق والتوتر الاجتماعي بدلًا من إجراء تغييرات تكيفية حقيقية في النظام السائد والثقافة السائدة، والأشخاص الأكثر مرونة يُفضلون إجراء تغييرات مختلفة في حياتهم الشخصية، لتقليل الإجهاد المجتمعي عن طريق إضافة أو استبدال عناصر أخرى في حياتهم.

ثانيًا: ضغط فردي مُتزايد:

وهي المرحلة التي تزداد فيها أسباب الضغط، وتختلف تأثيراتها الاجتماعية بحسب اختلاف الأسباب، فتبدأ بظروف اجتماعية عامة، مثل: الحروب، الكوارث الطبيعية، الاستطالة في الاستبداد، الإبادة الجماعية، ثم تتحول إلى صعوبات شخصية مثل: فقدان النفوس، ضياع الأموال والممتلكات، انتشار الأمراض، الانهيار النفسي، إلى غير ذلك.

في هذه المرحلة يتعرض أفراد المجتمع لحالة من الضغط غير المُحتمل بسبب عدم قُدرة الأنماط الثقافية السائدة في إشباع حاجاتهم والحفاظ على قيمهم، حيث لا تُجدي الحلول المُعتادة في التخفيف من حدة التوتر والقلق الشخصي ومقاومة الضغوط المجتمعية.

ثالثًا: تشوه ثقافي:

وتبدأ مع فشل الأنماط الثقافية السائدة في استعادة التوازن الاجتماعي تمامًا، واستمرار ارتفاع حدة التوتر والقلق والانهيار والتفكك المجتمعي، التي يتفاعل معها المجتمع بشكل سلبي فيما يُعرف بالاستجابة الرجعية بأشكال مُختلفة مثل: انتشار العُنف، إدمان المخدرات والكحول، البطالة، التفكك الأُسري، الفساد الوظيفي، ضعف الدين، التحرر من النظم الاجتماعية، زيادة معدلات الجريمة، اللامبالاة الأخلاقية، تفشي الاكتئاب والاضطرابات النفسية والعصبية، وغيرها من الأنماط الثقافية الانحدارية.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل تتصادم معظم عناصر المجتمع في هذه المرحلة، وترتبط ببعضها بشكل نفعي مُتعارض في كثير من الأحيان، متجاهلةً صلات القرابة والصداقة والمسئوليات الاجتماعية، ولا تُفلح الأعراف التقليدية في حل الأزمات الفردية والمجتمعية، بل يصبح الصراع هو الوسيلة الأمثل لتحقيق المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة، مما يُؤدي إلى وفور الخلل في جميع الجهات وتسريع انهيار المجتمع.

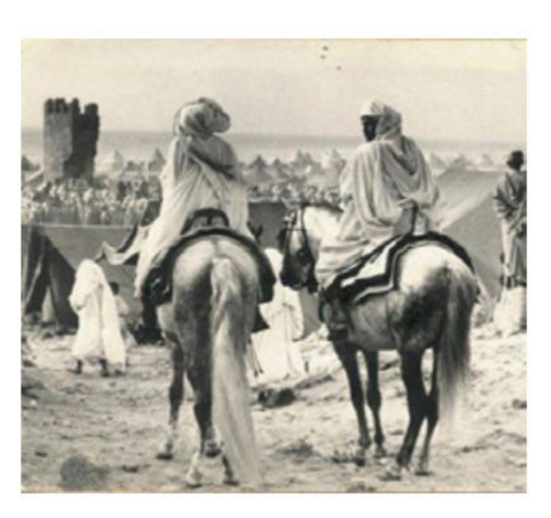
وفي الغالب ما تأخذ السلوكيات المنحرفة والشاذة صورة جماعية منظمة، بحيث يتصور البعض أن أنماط الثقافة الأصلية قد انهارت تمامًا وحلت محلها تلك الانحرافات، وهذا هو جوهر التشوه الثقافي، حيث يصعُب أو يستحيل استعادة حالة التوازن دون حركة تنشيطية جادة أو عملية إحيائية جذرية، وإلا استمر المجتمع في التفكك والانهيار حتى يَتفَتَت كليةً أو يندمج في آخر أكثر استقرارًا وقوةً وتأثيرًا، وهذه هي النهاية التي انتهت بها وعندها أكثر الأُمم التي تلاشت أو الجماعات التي اندثرت.

ولا يوجد حد مُعين للتشوه الثقافي المشار إليه، بل هو نسبي يختلف من مجتمع لآخر ومن جماعة لأخرى، وبرغم صعوبة هذه المرحلة وخطورتها التي قد تنذر في بعض الأحيان بزوال كيان الجماعة من الوجود تمامًا، إلا أنها ضرورية وأساسية في عمليات الإحياء المجتمعية، بل هي أهم مراحلها في الواقع، لأن من خلالها تتحدد النقطة المحددة التي يجب أن يبدأ عندها التحول والتغيير.

ويُقدم لنا التاريخ الإسلامي أكثر من حالة لبعض المجتمعات التي تعرضت للتشوه الثقافي لأسباب مختلفة بعد مرورها بفترات طويلة من الاستقرار، لعل من أبرزها ما شهدته قبائل (البربر) التي كانت قِوام دولة المرابطين فيما بعد في أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ففي الصحراء الكبرى المُمتدة من (غدامس) شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن جبال (درن) شمالًا إلى وسط الصحراء الكبرى جنوبًا، كانت تعيش قبائل البربر وكانت مكونة من أكثر من سبعين قبيلة، من أهمها: لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة ومسراته ومداسه.

وعلى الرغم من دخول الإسلام لقبائل (البربر) قبل قيام دولة المرابطين، إلا أن غياب العقيدة الإسلامية وتعاليم الدين الصحيحة كان هو السمة العامة لشكل التدين فيها، فلم يُغن الدين عن أن يَعم فيهم الجهل، وتنتشر بينهم الجرائم كالسرقة والنهب وشرب الخمر واستحلال الزنا حتى أن الزنا بالزوجات كان يتم بعلم أزواجهم، فضلًا عن العادات الاجتماعية الغريبة كالزواج بأكثر من أربعة نساء وغير ذلك.

ويُمكن تلخيص أهم الأسباب التي أدت إلى وصول هذه القبائل إلى هذه الحالة من التشوه:



أولًا: انقطاعهم في الصحراء وشدة تأثرهم بالعادات والأعراف القبلية القديمة، وعدم اختلاطهم بأهل العلم والديانة، لبُعدهم عن طرق الحج والمراكز العلمية المعروفة في شمال أفريقيا وقتها، فكان لا يصل لهم إلا من كان يقصدهم من التجار الذين كان سمتهم - في الغالب - الجهل، كما أشار أمير قبيلة (جدالة) يحي بن إبراهيم في كلامه مع شيخ المالكية أبي عمران الفارسي في القيروان أثناء عودته من رحلة الحج.

ثانيًا: الاستبداد والفساد السياسي الذي كان كانت تُعاني منه هذه القبائل، وما استتبعه من تحالف الطبقة الحاكمة مع أصحاب رءوس الأموال الذين كانوا يحتكرون كل مصادر الثروة من الأراضي الزراعية ومناجم الملح والماشية وغير ذلك، ثم تطور الأمر للمغالاة الشديدة في فرض الضرائب والمكوس على الأفراد، فانقسم المجتمع إلى قسمين رئيسيين:

أسياد: وهم الأمراء والأعيان والأثرياء الذين كانوا يحتكرون النشاط التجاري وكل مصادر الثروة من الأراضي الزراعية ومناجم الملح والماشية وغير ذلك.

وعبيد: وهم الفقراء وعامة الناس الذين كانوا يعملون في المناجم والزراعة ورعي الماشية، الذين ليس لهم أية حقوق اجتماعية، حيث كانوا يعيشون في قحط شديد بسبب ضعف موارهم المالية وما يفرضه عليهم الأمراء والأعيان من الضرائب، حتى أن منازلهم كانت تُبنى من أغصان الأشجار وتُغطى بالجلود.

رابعًا: إحياء الجماعة:

حيث يأخذ بعض أعضاء الجماعة زمام إحداث واستخدام مجموعة من التجديدات الثقافية بهدف القضاء على حالة الانهيار المجتمعي، وهذه التجديدات في الغالب ما ترتبط بتعديلات في النظام الاقتصادي وتحولات في النظام السياسي.

وتتوقف سرعة التحول للثقافة الجديدة على ثلاثة عناصر أساسية:

(١) طريق المتاهة البديل:

أو ما نستطيع أن نعبر عنه بالرؤية، وهي الصورة الذهنية الجديدة التي تتم إعادة صياغتها لثقافة الفرد وشكل المجتمع بطريقة تختلف عن الصورة السائدة، ولا يهم أن تكون مبتكرة أو مجددة، المهم أنها تكون مفاجئة ومثيرة بحيث تلاقي قبولًا عند عدد من الناس.

(٢) المُلْهِم :

وهو الفرد المُبتَكر الذي يظهر بين مجموعة من المُهتمين بإيجاد طريق بديل للخروج من المتاهة الاجتماعية من خلال تجديدات ثقافية جذرية، وتعتمد العملية الإحيائية على نجاحه في نشر أفكاره ومد المُهتمين بالثقة وبإمكانية التخلص من حالة الانهيار الثقافي وتحقيق الحالة المثالية، لذلك يتمتع المُلْهِم بخصائص وسمات خاصة ومهارات فذة، تُساعده بشكل كبير في نشر أفكاره وجذب التابعين وإقناعهم بوجهات نظره وطاعة توجيهاته.

(٣) المُهتمون:

وهم مجموعة من الأفراد، يزيدون أو يقلون، يكونون أكثر اجتماعًا وأقرب أُلفةً وأقل تنافرًا، يتبعون أفكار المُلْهِم، ويُشكلون فيما بينهم تنظيم اجتماعي يحاول الاتصال بالآخرين والترويج لتجديدات المُلْهِم وإضافاتهم، وإقناعهم بقبولها واستخدامها، وربط المجتمع وضمه بوجهات نظر محددة، فيما يُشبه الثورة على النظم التقليدية.

وكما أن المُلْهِم يتمتع بصفات مُميزة، فكذلك المُهتمين، لهم من الصفات الخاصة ما يُباينون به باقي أفراد المجتمع في اهتماماتهم وعزائمهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم.

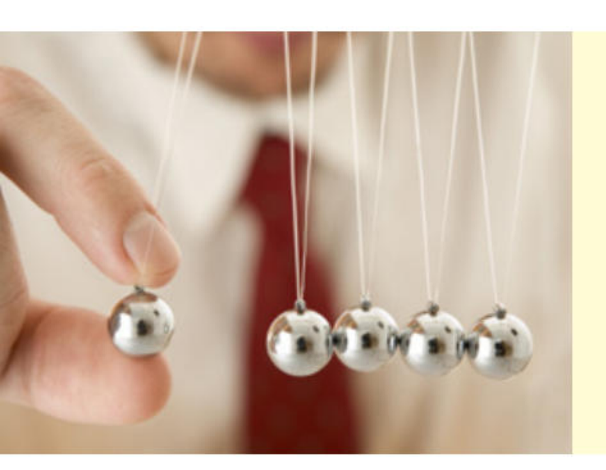
والفضل الحقيقي في إحداث التحول الثقافي والتغير الاجتماعي يكون لهؤلاء المُهتمين، فالمُلْهِم في أحوال كثيرة يفنى قبل أن يُمَكن لتصوراته أو ترى صورته الذهنية النور، لكن الدور الأساسي الذي يقوم به هو تحرير إرادة المُهتمين من قيود الثقافة القديمة ونزع هيبة التغيير من صدورهم ورسم الطريق الجديدة لهم وربطهم ببعضهم برباط أفكاره الثورية ومدهم بالثقة في قُدرتهم على التغيير وتأهيل نفوسهم على خوض الغمار

الصعبة، وعلى قدر ما يملك المُلْهِم من قوة وصدق على قدر ما يستطيع إحداث هذه الآثار في أتباعه، وعلى قدر ما يمتكلون من وضوح في أفكار متبوعهم على قدر ما يستطيعون تحقيق رؤيته.

وفي الجملة فإن هذه العناصر الثلاثة؛ الرؤية، المُلْهِم، المُهتمون، ترتبط بأربع وظائف مهارية جوهرية هي: الصياغة، الاستقطاب، التنظيم، المواجهة.

ويُمكن تقسيم مرحلة الإحياء إلى مرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: الصدام الاجتماعي:



حيث يستخدم المُلْهِم والمهتمون الذين استجابوا لأفكاره الإحيائية أو توافقوا معه عليها عدة أساليب لنشرها، بعضها اختياري وبعضها اضطراري وبعضها قسري، بحسب اختلاف الجماهير مع المُهتمين وأفكارهم أيدولوجيًا، وبحسب مواقفهم من هذه الأفكار وقبولهم أو رفضهم لها.

فينتج عن ذلك عدة أنواع من الصدامات الاجتماعية التي تختلف في نوعها وقوتها بحسب اختلاف الأساليب المُستخدمة في نشر الأفكار الإحيائية، ابتداءً من الممانعة نتيجة الخوف، وهي أبسط أشكال المقاومة، ورفض التغيير المحض من قِبل الأجيال المُتقدمة في العمر، والرفض العدائي لاختلاف الأيدولوجية، وأخيرًا القمع والمقاومة العنيفة من السُّلطة أو الفصائل القوية في المجتمع.

المرحلة الثانية: التكيُف المُنظم:

وهي الحالة التي يبدأ معها المجتمع بالتكيف مع وسائل المقاومة الجديدة وقبول طريق الخروج من المتاهة البديل، وفي هذه المرحلة تحدث حالة من الإنعاش الاجتماعي، نتيجة زيادة عدد الذين يَقبلون الطريق الجديدة، ويحدث التحول الثقافي، حيث تحل الثقافة الجديدة وعناصرها المُختلفة محل الثقافة القديمة أو الثقافة المُشوهة، وهنا تبدأ مرحلة ثبات جديدة على التحول الثقافي، تُعاد فيها صياغة الأعراف والولاءات

والنظرة إلى العالم، ورغم تمتع المجتمع معها بالهدوء النسبي، إلا أنها لا تخلو من التغيرات الثقافية المُتتابعة والتي تستمر لفترات طويلة، لاسيما الاقتصادية والسياسية.

فالعملية الإحيائية التي شهدتها قبائل (البربر) بدأت عندما تولى يحي بن إبراهيم زعامة قبيلة (جدالة)، وكان مُطاعًا في قومه، معروفًا برجاحة عقله وسداد رأيه، حريصًا على إصلاح قومه، إذ خرج من قريته إلى (القيروان) عازمًا على أن يبحث عن طالب علم يساعده على إحياء روح الإسلام التي غابت معالمها في قبيلته، فقابل شيخًا كبيرًا من شيوخ المالكية وهو أبو عمران الفارسي، فاشتكى له انقطاع قومه في الصحراء عن العلم والدين حيث لا يصل إليهم إلا بعض التجار الجهال ممن حرفتهم البيع والشراء، وطلب منه أن يعاونه على تعليم قومه أصول الإسلام الصحيحة بإرسال أحد طلبة العلم النابهين معه، فأرسله أبو عمران إلى تلميذه المُقرب الفقيه المالكي وجاج بن زلو اللمطي، طالبًا منه أن يُرسل معه من يثق في دينه وكثرة علمه وسياسته، ليُعلمهم شرائع الإسلام، ويُفقههم في الدين [٦].

فعرض الأمر على تلميذه عبدالله بن ياسين وكان كثير العلم كثير الترحال في طلبه الذي وافق على الفور ورحل مع يحي بن إبراهيم، تاركًا خلفه ماله وأهله وإقامته بالمدينة الساحلية إلى قلب الصحراء الموريتانية القاحلة، ليُؤدي دور المُلْهِم في العملية الإحيائية التي شهدتها قبائل (البربر)، حيث أقام في قبيلة (جدالة) أربع سنوات، حاول خلالها تصحيح عقيدة المجتمع، وتغيير عادات الفاسدة، ودعوة أفراده للتخلق بآداب الإسلام وأخلاقه.

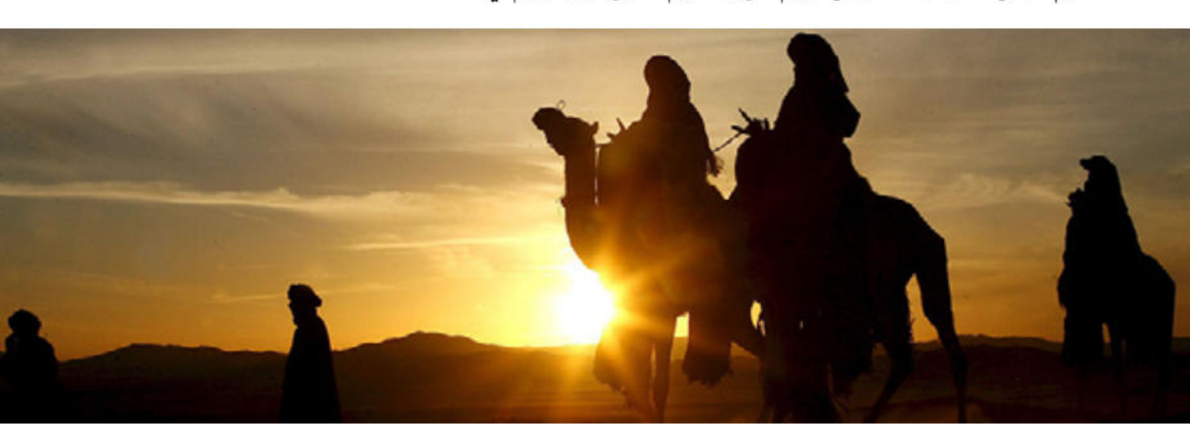
ولم يكن للإصلاح الذي أراده يحي بن إبراهيم وعبدالله بن ياسين لقبائل (البربر) أن يُثمر في إحداث التحول والتغيير دون أن يكون موجه بالأساس للأعيان والأثرياء قبل الفقراء والضعفاء، وكان من لزام ذلك أن دعوة ابن ياسين انصبت في المقام الأول على قِيم المساواة والعدل والرحمة، ونبذ الطبقية والمحسوبية، وتجنب الغش والخيانة والجور والتعسف والاستغلال، وضرورة تكوين أُمة متحدة متماسكة تستمد قوانينها وعاداتها من كتاب الله وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الصحابة والتابعين.

وكان من نتائج ذلك أن اصطدم ابن ياسين بوجهاء وأعيان القبيلة الذين تعارضت مصالحهم مع دعوته، فتعرض للأذى والاضطهاد وانتهى الأمر بتهديدهم له بالقتل، فهَمَّ بالسفر إلى بعض قبائل السودان، غير أن الأمير يحي رفض ذلك وأشار عليه بفكرة الاعتزال في رباط مجاور يقوم فيه بتنئشة وتربية رجال قادرين على مساندته في إحداث التغير المنشود.

(٦) ابن عِذراي المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت)، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، ج ٤ ص ٧: ٨.

فخرج ابن ياسين بمشورة الأمير يحي إلى رباط في جزيرة معزولة وانصرف يُربي أتباعه، ويُفقههم في الدين، فالتف حوله الكثيرون، فكوّن من نجباء تلاميذه مجلسًا للشورى، كما شَكّل إدارات متعددة لتقوم بأمور الرباط وشئون المرابطين بعد أن صاروا من الكثرة بمكان، فضلًا عن مدارس علمية متنوعة، وبيت مال تُجمع فيه الصدقات والعشور.

وقد تميَّز الرباط بحسن إدارته وتنظيمه، ولم يقف الأمر عند حد ضبط الرباط وتنظيمه داخليًا، بل بدأ ابن ياسين بتوجيه النابهين من تلاميذه إلى قبائلهم كدعاة، فانقاد لهم القليل من أشراف صنهاجة، ولكن عموم القبائل تمنعت، فعزم ابن ياسين على تقويم الممانعين بالقوة، وإجبارهم على الانقياد له من خلال إعلانه الجهاد، واستطاع بسهولة إجبار الممانعين في قبيلة جدالة، ثم لَمتونة، ثم مسوفة، فانقادوا له وبايعوه، ثم أجابت عموم قبائل صنهاجة، فأرسل فيهم من يعلمهم الدين، ويُفقههم في أحكامه.



وظلت دولة (المرابطين) التي تأسست على أنقاض قبائل (البربر) في اتساع، حتى ضمت عموم قبائل صحراء شمال ووسط أفريقيا، وساعد على انتشار دعوة المرابطين وانقياد الناس لهم: رفع الظُلم عن الناس، وإسقاط المغارم والمكوس والضرائب التي كانت مفروضةً عليهم، وإصلاح أحوالهم الاجتماعية والمعيشية، وتغيير المنكرات التي كانت منتشرة في عاداتهم وتقاليدهم.

على أنه يجب أن يُفهم أن العملية الإحيائية هي عملية متعددة المستويات، تبدأ بالمستوى النفسي الذي يُركز على دور الانهيار في بدء العملية الإحيائية، والمستوى السلوكي الذي يُركز على تأثير الاستجابة في تسريع حدوث التحول، ومن جانب آخر المستوى الإنساني أو الفردي الذي يُركز على تأثير التحول بمراحله المُختلفة على الذات، والمستوى الاجتماعي الشمولي الذي ينظر لعملية التحول من كل الجوانب الاجتماعية.



أخطاء أمنيـــة قاتلـة!

محمد إلهامي

لعل أكثر الأسئلة التي خطرت ببال أي مسلم هو: لماذا لم ننجح؟! وهو السؤال الذي يبحث عنه كل صاحب تخصص في تخصصه، ومن يطالع قصة وتجارب الحركات الإسلامية سيجد أن واحدا من أهم تلك الإجابات المتكررة في كل قصة هو: الأخطاء الأمنية!

(١)

بعد نهاية الجهاد الأفغاني وسقوط الاتحاد السوفيتي أعلن الأمريكان أن سياستهم الجديدة هي ملاحقة الإرهاب، تحول الشباب المجاهد في أفغانستان إلى إرهابيين ملاحقين في سائر دول العالم، وأعلنت سياسة إنهاء «الملاذات الآمنة» التي استهدفت تفعيل سائر أجهزة الأمن المحلية للقيام بدورها في تعقب الزعامات الجهادية عبر العالم. وعند إعلان أسامة بن لادن قيام تنظيم «قاعدة الجهاد» تحالفت معه جماعات أخرى كتنظيم الجهاد المصري والجماعة الإسلامية المصرية، فشمل المجهود الأمني العالمي تعقب سائر قيادات هؤلاء بلا هوادة، وألقي القبض على قياداتهم حول العالم من إفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية والغربية معا.

استقر بعض قادة الجماعة الإسلامية المصرية في إيران، حيث وفرت لهم الدولة إقامة محترمة وحراسة شخصية ومعاملة لائقة وكان لهم خط مفتوح مع صناع القرار، ومن بين هؤلاء الشيخ رفاعي طه رئيس مجلس شورى الجماعة الإسلامية، وآخر من بقي حرا من الصف الأول للقيادات. وعلى الرغم من إعلان

الجماعة الإسلامية بمصر وقف القتال من جانب واحد وبدء مسار المراجعات والمبادرات، إلا أن هذا لم يُفَعَّل لبقاء رفاعي طه حرا وهو ممن يرفض المراجعات.



تحرك رفاعي طه من إيران إلى السودان في مهمة تنظيمية، بجواز سفر لا يحمل اسمه بطبيعة الحال، وصل من إيران إلى سوريا، أعفى حارسه الشخصي الإيراني من مهمة حراسته (فهو حارس، وفي الوقت نفسه رقيب)، واستعمل جوازا آخر سافر به إلى السودان، ثم عاد به من السودان إلى سوريا، ونزل في مبنى للسكن المفروش المؤقت. كانت لديه مشكلة بسيطة: زمن تأشيرته على الجواز الذي يستعمله في الخروج والدخول إلى إيران انتهى ويحتاج تجديده، فاتصل بأسرته في طهران وأخبرهم بأن يتواصلوا مع الأخ (فلان) ليُنجز المطلوب، فإن أنجزه فليتصل به على رقم الغرفة في المبنى الذي ينزل به.

ما إن وضع سماعة الهاتف حتى انزعج وعاتب نفسه: لا بد أن هاتف بيته في طهران مراقب، وهو هكذا كشف عن مكان إقامته في سوريا بالتحديد. نزل به همٌّ شديد ولم يدر ماذا يفعل؟ فقرر ألا يبيت في مكانه، فذهب إلى صديق له بمخيم فلسطيني ليقضي عنده تلك الليلة ويستشيره فيما يفعل. عرض عليه صديقه أن يبيت عنده ولا يعود إلى السكن وهو سيرسل من عنده شابا يحزم الأمتعة ويعيدها إليه دون أن يتعرض هو للمخاطر. وبعد ليلة جيدة ذهب عنه الروع فيها، عنَّ للشيخ رفاعي أن يذهب بنفسه إلى السكن ليحزم بنفسه أمتعته، فمنها ما لا يحب أن يحزمها غيره، أصر عليه صديقه ليبقى تجنبا للخطر، وأصر هو على الذهاب بعدما زال الخوف عنه.

بعد دخوله الغرفة بدقائق فوجئ بطرقات على الباب، رجلان يقولان أنهما من الشرطة السورية وأن هذا البيت صدر قرار بعدم تأجيره لمخالفات قانونية ارتكبها صاحبه، وحيث أن الضحية ضيف على البلد فإنهما سيصححان غلط المواطن السوري وسيصطحبان الضيف الزائر إلى مكان بديل. لم يقع شك في نفسه أنه قد وقع في المحظور وأنه في حكم المعتقل. ألح من جهته أن الأمر لا يستحق، وألحا من جهتهما أنه لا بد من تصحيحهما الخطأ، تركوه لدقائق يحزم أمتعته ثم ساقوه إلى سيارة أنزلته في جهاز الأمن بالعاصمة دمشق.

عند بداية دخوله على المحقق وجد أن هويته قد انكشفت، خاطبه مباشرة باسمه: رفاعي أحمد طه، وبصفته: رئيس مجلس شورى الجماعة الإسلامية، وحيث كان قرار القبض أمريكيا فلم تُجْدِ شيئا العلاقة

الطيبة بينه وبين إيران. ومن جهاز الأمن إلى رحلة تحقيق وتعذيب لم تستمر طويلا، ثم خمسة عشر يوما في الحبس مع وعد بالإفراج القريب.

بعد مناورات أمنية هدفت إلى إقناعه بأنهم سيُفرجون عنه، خرج من السجن معصوب العينين إلى سفينة مصرية عليها ضباط المخابرات المصرية، موهمين إياه أنه على سفينة أجنبية ستقله إلى دولة أوروبية، وأنه حين يخرج من المياه الإقليمية سيرفعون العصابة عن عينه والقيد عن يديه، ثم جرت تمثيلية أمنية تهدف إلى إيهامه أن مجموعة مصرية اعترضت السفينة في البحر واختطفته منها، وأعيد إلى مصر (إبريل ٢٠٠١م)، وقضى في السجن أحد عشر عاما، حتى خرج في (سبتمبر ٢٠١٢م) في عهد الرئيس مرسي[1].

خطأ أمني كلف أحد عشر عاما من السجن! فضلا عن الآثار غير المحصورة لوقوع شخصية قيادية في الأسر وغيابها عن الواقع!

(٢)

لعل أشهر وأخطر خطأ أمني في تاريخ الحركات الإسلامية هو ما عُرف بقضية السيارة الجيب، وبها سقط النظام الخاص للإخوان المسلمين، وهو الجهاز الذي استطاع الحفاظ على سريته وكفاءته مدة طويلة في ظروف عمل حرجة للغاية.

تلك الضربة الكبيرة التي أسقطت أقوى حركة إسلامية في وقتها كانت نتيجة عدد من الأخطاء الصغيرة التي لا يُنتبه لها.. والقصة بدأت من أن طالبا في كلية الطب قد خصص غرفة من منزلة لتجميع أوراق ووثائق النظام الخاص (أسماء وتدريبات وتقارير ورصد أهداف... إلخ)، ثم اضطرته ظروف الدراسة إلى الانتقال من القاهرة إلى الإسكندرية فأفضى إلى مسؤوله بضرورة أخذ «العهدة»:

١. كان الخطأ الأول هو التسويف في نقل العهدة، فقد ظل طالب الطب يُلح على أخذها وينبه لاقتراب الوقت، والمسؤول يسوف ويؤجل حتى لم يعد على سفره إلا يوم واحد. فأصدر المسؤول أمرا لأحمد عادل كمال أن ينقل تلك المحتويات اليوم بأي وسيلة من مكانها إلى مكان آخر آمن.

٢. وجد أحمد عادل نفسه فجأة مسؤولا عن عمل خطير بلا أي أدوات، ولا تعليمات واضحة.. وبينما هو

(١) سمعت الحكاية من الشيخ رفاعي طه بنفسه، وقد التقيته في اسطنبول، ٢٠١٥م.

في حيرته «صادف» أحد إخوان النظام الخاص وقد اشترى سيارة جيب من مخلفات الجيش الإنجليزي، فعرض عليه نقل المحتويات بها فوافق.. إلا أن موتور السيارة كان ضعيفا ويتوقف أحيانا، كما أن الحمولة المراد نقلها كانت فوق طاقتها.. لكن لم يكن ثمة بديل.

٣. لتضارب الترتيبات وفجائيتها تضاربت مواعيد اللقاء بين أحمد عادل كمال مسؤول عملية النقل وبين إبراهيم محمود صاحب المنزل الذي ستُنقل إليه الأوراق والوثائق، كانت المفاجأة التي لم يعرفها مسؤول عملية النقل أن إبراهيم يسكن في شقة مستأجرة بمنزل رجل يريد أن يُخرجه منها ليزوج ابنته فيها.. الزوج المنتظر هو مخبر في البوليس السياسي! فبينما هم يفرعون الحمولة في شقة إبراهيم رآهم المخبر وارتاب في محتويات الحمولة المنقولة، وهرع من فوره للإبلاغ عنها.

٤. انتبه الناقلون إلى اختفائه المفاجئ، ومع العداوة القائمة بينه وبين صاحب الشقة كان سهلا أن يتوقعوا منه الشر، فأعادوا بسرعة نقل الأوراق والوثائق إلى السيارة الجيب من جديد ليبتعدوا بها.. إلا أن السيارة ذات الموتور الضعيف والتي كانت الحمولة فوق طاقتها لم تستجب للتشغيل ولم تَدُرْ وظلت راقدة في مكانها وهي تحمل أخطر وثائق لأخطر حركة في مصر كلها!



٥. حضر المخبر فاكتشف أنهم يحاولون العودة، فصرخ عليهم وصرخ في الناس، فلم يجد أولئك بديلا إلا الهرب في الموقف الحرج.. فتركوا ما في السيارة وانطلقوا هاربين، إلا أن الناس أمسكت بهم، وأمسك المخبر بالسيارة الجيب ذات الكنز الهائل من الوثائق. ووقع في يد السلطة الملكية المصرية أسرارًا خطيرة ما كان لها أن تحصل عليها في يوم واحد!

وهكذا انكشف النظام الخاص للإخوان المسلمين، والذي هو أنضج تجربة أمنية عسكرية لحركة إسلامية في مصر حتى وقتنا الحالي فيما نعلم.

هاتان واقعتان فحسب يرصدهما من يقلب كتب التاريخ، لا في كتب الأمنيين ووثائقهم، ففي تلك الكتب مادة غزيرة لا شك، وتلك المواد لا بد لكل كيان ثوري وحركة تغييرية أن تدرسها بعمق وأن توظف خبرتها في تجربتها الخاصة.



هل تكفي الأساليب العسكرية للنصر؟

م. أحمد مولانا

يخطف بريق الأساليب العسكرية المتطورة والانتصارات التكتيكية الجريئة للدول والجماعات والتنظيمات عقول المتابعين، وكثيرًا ما يذهلهم عن رؤية الحقائق الاستراتيجية المعاكسة التي تظهر بمضي الوقت، والتي تكشف عن فشل مدوي في استثمار النجاحات الميدانية لتحقيق الأهداف السياسية المرجوة.

وبالمثال يتضح المقال: فأميركا بأساليبها العسكرية المتطورة نجحت في غزو أفغانستان والعراق[١] مطلع الألفية الحالية، وأزاحت حركة طالبان ونظام صدام البعثي عن سدة الحكم بأقل قدر من الخسائر في صفوف جنودها، ولكنها سرعان ما (وجدت نفسها أبعد ما تكون عن توجيه ضربة ساحقة لتنظيم القاعدة، بل وجدت نفسها تنزلق إلى مستنقع كارثي)[٢] في البلدين، تكبدت خلاله خسائر فادحة بشريا واقتصاديا، وفشلت في الخروج من الحربين بنتائج ذات قيمة سياسية.

إثر ذلك اهتم الباحثون الغربيون بدراسة أسباب فشل الاستراتيجية الأميركية في البلدين للخروج بدروس مستفادة تساعد على النجاح فيما يسمى (الحرب ضد الإرهاب). ومن بين تلك الدراسات كتاب: (الاستراتيجية العسكرية - سياسة وأسلوب الحرب) الذي دونه البريطاني (جون ستون)[٣] معتمدا في جوهره على أطروحات المنظر البروسي كلاوزفيتز[٤].

(١) - أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش انتهاء العمليات الحربية في العراق في مايو ٢٠٠٣، وبلغ عدد القتلى من الجيش الأميركي آنذاك ١٢٧ قتيل، ثم سرعان ما بدأت الحرب الحقيقية على يد الجماعات الجهادية وحركات المقاومة فبلغ عدد القتلى الأمريكيين ٤ آلاف قتيل.

(٢) - جون ستون (الاستراتيجية العسكرية - سياسة وأسلوب الحرب) - ص١١- ط . مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية - عام ٢٠١٤.

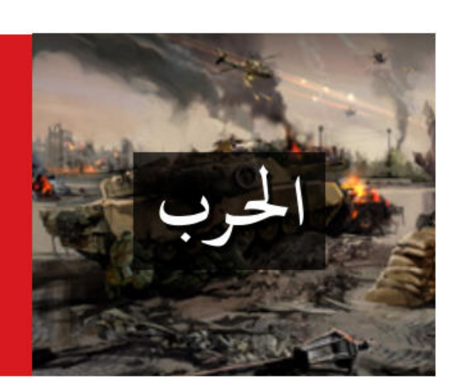
(٣) - محاضر أول في قسم دراسات الحرب في جامعة (king,s college) في لندن.

(٤) - كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠-١٨٣١) جنرال بروسي ألف عددا من الكتب من أبرزها كتاب (عن الحرب) الذي يعد من أشمل كتب الاستراتيجيات العسكرية

في هذا المقال نسعى لتحديد تعريفات (كلاوزفيتز وجون ستون) للحرب والاستراتيجية والأسلوب العسكري، ثم نتتبع معهما أسباب فشل مشروع نابليون الإمبراطوري، ونواصل مع (ستون) عرضه لأسباب انهيار المشروع التوسعي الألماني نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وعلاقة ذلك بتعثر المشاريع التوسعية الأمريكية المعاصرة، ثم نذكر خلاصة توصيات (ستون) بخصوص كيفية الانتصار في الحرب على الإرهاب.

تعريفات مهمة

الحرب



عبارة عن (عمل من أعمال القوة لإجبار العدو على تنفيذ مشيئتنا)[٥] وهى في جوهرها (سياسة تدار بخوض المعارك لا بإرسال المذكرات الدبلوماسية)[٦]، ومن ثم يؤكد كلاوزفيتز على أن (السياسة هى التي تنشئ الحرب، فهى العقل الموجه، بينما الحرب مجرد آلة ، لذلك لابد من إخضاع وجهة النظر العسكرية للسياسية)[٧].

الاستراتيجية العسكرية



هى العملية التي تُترجم من خلالها القوة المسلحة إلى نتائج سياسية مستهدفة[٨]. ومن ثم فإنها عمل سياسي يستلزم النجاح فيه ممارسة حسن تقدير الأمور لمعرفة أي القرارات أكثر أهمية. ويحتاج الاستراتيجي في صوغ نظريته إلى أن يدرك دوافع عدوه لخوض الحرب ومدى قوة تلك الدوافع. فأشد القوى فتكا وتفوقا في الوسائل الفنية يمكن أن تكون دون قيمة بل وضارة بالأهداف السياسية إذا لم يفهم أصحابها أعداءهم بصورة دقيقة.

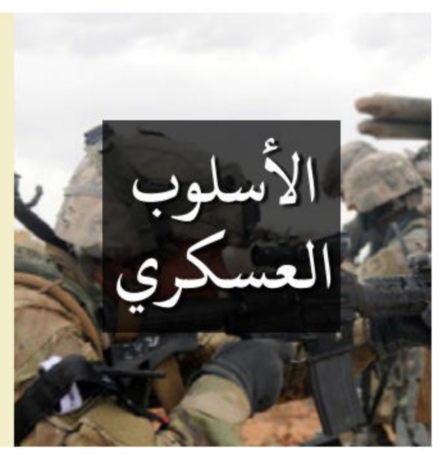
ويتكون من ٨ كتب تناول فيها (طبيعة الحرب ، ونظريتها والاستراتيجية، والاشتباك، والقوات العسكرية، والدفاع، والهجوم، وخطط الحرب).

(٥) - كلاوزفيتز – عن الحرب – ص١٠٣- ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر – عام ١٩٩٧.

(٦) - المصدر السابق ص ٨٣٤.

(٧) - المصدر السابق ص ٨٣٨.

(٨) - جون ستون – (الاستراتيجية العسكرية – سياسة وأسلوب الحرب) – ص١٤.



هو الحقائق الفنية والممارسات والمفاهيم المتعلقة بالاستخدام الكفء للقوة، ويشمل الأسلحة والمعدات والمسؤولين عن تشغيلها والنظريات التكتيكية لعملها. ودوره يتمثل في الاستخدام الكفء للقوات لتجاوز العقبات التي تحد من فعالية العمل العسكري كالمصادفات -من قبيل تعطل بعض المعدات المهمة والظروف الجوية المعاكسة -وكالإخفاقات المعنوية مثل إحساس الجنود بالخوف أو التعب.[٩]

يهدف أسلوب الحرب لتدمير وسائل مقاومة العدو بأسرع ما يمكن، مع مراعاة ألا تزيد كفة تكاليف الحرب على كفة فوائد النصر، وإلا تصبح الحرب غير مجدية. ولكن عمليا فأن السعي لتجنب تكاليف باهظة للنصر يقزم الأهداف الاستراتيجية للحرب ويجعلها أكثر تواضعا، فتكتفي بتدمير جزء من وسائل مقاومة العدو مع الابقاء على التهديد بتدمير الباقي عند اللزوم وذلك للنيل من إرادة الخصم، وإقناعه بأنه لن ينال من مواصلة القتال سوى مزيد من الخسائر دون طائل.

عقب تلك التعريفات التأسيسية سنتناول المشروعين التوسعيين لفرنسا وألمانيا في القرنين الأخيرين:

(الثورة الفرنسية ونابليون)[١٠]

اعتمدت الحروب في أوربا قبل الثورة الفرنسية على المناورات بالجيوش لوضع الخصم في وضع ميداني صعب لا يسعه فيه إلا الانسحاب أو قبول التفاوض وإنهاء الصراع دون اشتباك دموي قدر الإمكان، فيقول ((المارشال (دي ساكس – ت ١٧٥٠) : أنا مقتنع تماما بقدرة القائد الجيد على خوض الحرب طول عمره دون الاضطرار لخوض معركة واحدة)) . أما بعد الثورة أصبحت نهاية الحروب تفرض من خلال التدمير العسكري الكلي أو الجزئي لقوات الخصم بدلا من المناورات الميدانية، كما حدث توسع في تجنيد المواطنين، وتضخمت أعداد الجيوش فصار تعداد (جيش نابليون يتروح بين ١٠٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف رجل)[١١] بينما كان تعداد الجيوش الأوربية قبل الثورة ما بين (٣٠–٤٠) ألف رجل. بل وشن نابليون حملته على روسيا عام ١٨١٢ بجيش يبلغ تعداده ٦٠٠ ألف رجل.

(٩) - المصدر السابق – ص(١٩-٢١).

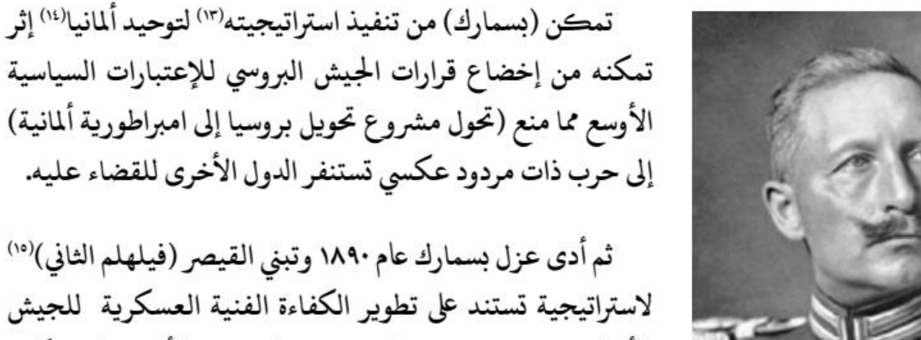
(١٠) - للمزيد انظر فصل (الثورة الفرنسية ونابليون) من كتاب (الاستراتيجية العسكرية) لجون ستون ، والكتاب الثامن بعنوان (خطط الحرب) في كتاب كلاوزفيتز (عن الحرب).

(١١) - كلاوزفيتز – عن الحرب – ص٤٢٨.

هذا التطور في الأساليب العسكرية حدث كأحد تداعيات التطورات السياسية التي حصلت آنذاك ، فقد قضت الثورة على الإجماع السياسي الأوربي المتفق على مشروعية النظام الملكي، ولم تعد المعارك مجرد صراعات محدودة على مقاعد الحكم بين العائلات الملكية الأوربية بل صارت أقرب لمعارك الوجود المستندة إلى خلافات أيدلوجية.

ورغم تميز الأسلوب العسكري لنابليون وقدرته على حشد قواته في أفضل الظروف المتاحة إلا أنه كان شخص ضعيف استراتيجيا يفتقر إلى حسن التقدير اللازم لمعرفة الحدود السياسية التي يعجز أسلوبه العسكري عند تجاوزها عن تأمين بقائه في السلطة ، فطموحه السياسي لفرض الهيمنة على أوربا أدى إلى تحشيد القوى المعارضة له في جبهة مضادة باعتبار أن تكاليف التعايش معه أفدح من تكاليف التصدي لمشاريعه التوسعية، مما أدى إلى هزيمته في النهاية.

الاستراتيجية في بروسيا وألمانيا في القرن التاسع عشر[١٢]



تمكن (بسمارك) من تنفيذ استراتيجيته[١٣] لتوحيد ألمانيا[١٤] إثر تمكنه من إخضاع قرارات الجيش البروسي للإعتبارات السياسية الأوسع مما منع (تحول مشروع تحويل بروسيا إلى امبراطورية ألمانية) إلى حرب ذات مردود عكسي تستنفر الدول الأخرى للقضاء عليه.



فيلهلم الثاني

ثم أدى عزل بسمارك عام ١٨٩٠ وتبني القيصر (فيلهلم الثاني)[١٥] لاستراتيجية تستند على تطوير الكفاءة الفنية العسكرية للجيش الألماني وتتجاهل حساب الاعتبارات السياسية الأوسع إلى تشكيل تحالف فرنسي روسي ضد ألمانيا، ولم ينجح رهان القيصر على قدرة جيشه على شن هجوم خاطف يحسم الصراع ضد خصومه في الحرب العالمية الأولى ، إذ فشل هجومه إثر المقاومة القوية التي أبداها الجيشان البلجيكي والفرنسي ، فسقطت ألمانيا ضحية تحالف أكبر منها ساهمت في تكوينه ضدها باستهانتها بالبعد السياسي للاستراتيجية.

(١٢) - للمزيد انظر فصل (الاستراتيجية في بروسيا وألمانيا في القرن التاسع عشر) من كتاب (الاستراتيجية العسكرية) لجون ستون.

(١٣) - أتو بسمارك (١٨١٥- ١٨٩٨) تولى منصب رئيس وزراء بروسيا، وتمكن من توحيد الولايات الألمانية ليصير أول مستشار لألمانيا الاتحادية إلى أن عزله فيلهلم الثاني عام ١٨٩٠.

(١٤) - نشأت الإمبراطورية الألمانية عام ١٨٧١ إثر تمكن مملكة (بروسيا) من توحيد المدن والدول الألمانية المتناثرة.

(١٥) - فيلهلم الثاني (١٨٥٩- ١٩٤١) قيصر ألمانيا منذ عام ١٨٨٨ ، عزل من الحكم عام ١٩١٨ عقب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

الحرب العالمية على الإرهاب

رجح التورط الأميركي المتدرج[١٦] بفيتنام الرأي القائل بعدم صواب التصعيد المتدرج للقوة ، والداعي بدلا من ذلك لتجريد العدو من أسلحته بأسرع ما يمكن ، وهو الرأي الذي نظر له كلاوزفيتز باستفاضة في عدة مواضع من كتابه (عن الحرب) ، ثم دعمت حرب العراق عام ١٩٩١ هذا الرأي مما جعل الاستراتيجية الأمريكية تركز على الاهتمام بالجانب الفني والاستخدام الأمثل للقوة، ولكنها تغاضت عن جوهر نظرية كلاوزفيتز التي ركزت على أهمية البعد السياسي للحرب.

ومن ثم فشل الإعتماد الأميركي على الأسلوب العسكري المتطور وحده في هزيمة التنظيمات الجهادية عقب أحداث سبتمبر ، إذ أدى استخدام القوة بصورة مفرطة إلى إحداث مشكلات أكثر مما تسبب في تقديم الحلول ، مما دفع إلى الاهتمام باستراتيجيات مكافحة التمرد التي تعتمد على كسب قلوب وعقول السكان والحد من الخسائر في صفوفهم كي يوفروا معلومات ضرورية عن هوية الخصوم بدلا من مساعدتهم لهم.

خلاصات وتوصيات (جون ستون)

ذكر (ستون) أن استراتيجية بوش (من ليس معنا فهو ضدنا) لم تجد نفعا في بيئة معقدة مثل الشرق الأوسط وأثبتت فشلها في الإعتماد على القوة العسكرية وحدها لحل المشاكل السياسية مهما بلغت درجة تعقيداتها . ومن ثم فلابد من الموازنة بين مخاطر اتخاذ تدابير غير كافية لصد التهديدات الناشئة ومخاطر اتخاذ تدابير مبالغ فيها تؤدي إلى خلق مشكلات أكثر مما تحل ، وأكد على أهمية فهم الحدود التي يؤدي استخدام القوة بعدها إلى نتائج سياسية عكسية. وذكر أن النجاح في ذلك يعتمد على حسن التقدير المبني على فهم دقيق للخصوم.

ومن ثم يمكننا القول بأن إدارة أوباما تعلمت من دروس فشل إدارة بوش في العراق وأفغانستان، فاعتمدت على الحروب بالوكالة وإثارة النزاعات الطائفية والعرقية ، ومن ثم تركت مساحة للتمدد الرافضي في المنطقة بل ودعمته باعتباره الأقدر على تحقيق الاستراتيجية الأمريكية في حصار المسلمين السنة وتقليم أظافرهم دون التورط في حروب مباشرة معهم تدمي الطرفين، كما استغلت أميركا المظلومية الكردية ، ودعمت الأحزاب العلمانية الكردية دعما غير مسبوق لتكون بمثابة حائط صد أولا ضد هجمات تنظيم الدولة في العراق والشام ثم طورت ذلك إلى الهجوم على مناطق تواجد التنظيم، أي أنها أخضعت الاستراتيجيات العسكرية الفنية للإعتبارات السياسية كي تحقق أهدافها المرجوة. وهو ما يؤكد أن الأساليب العسكرية المتطورة لا تكفي وحدها لجلب الانتصارات.

(١٦) - بدأت المساهمة الأمريكية في حرب فيتنام بعدد محدود من المستشارين العسكريين والمدربين ، ثم تزايدت تدريجيا حتى بلغت نصف مليون جندي.



لهذا هُزم تنظيم الدولة الإسلامية

عبدالغني مزوز

لا تكمن أهمية معركة الموصل في كونها تجري في عقر دار «الخلافة» التي أعلنها تنظيم الدولة الإسلامية؛ بل أيضًا في كونها ميدان اختبار لعدد من التكتيكات الحربية والأساليب القتالية، وامتحانًا لجدوى الإستراتيجية التي تبناها تنظيم الدولة منذ عودته من الصحراء أثناء فعاليات الربيع العراقي في ٢٠١١، واستهلها بالسيطرة على عدد من المدن في العراق ثم السورية، وتوجها بإحكام قبضته على مدينة الموصل ثاني أكبر المدن العراقية، إستراتيجية شكل التمدد المكاني ومسك الأرض جوهرها الأساسي معلنًا بذلك انتهاء مرحلة «شوكة النكاية والإنهاك»، وبداية مرحلة التأسيس الفعلي للدولة كما عرفتها قواميس السياسية والاجتماع.

يرى العديد من الخبراء والمراقبين أن تنظيم الدولة خاض معركة الموصل ببسالة، وبروح قتالية عالية، ما جعل من معركة الموصل أطول معارك المدن في التاريخ الحديث (معركة فردان في الحرب العالمية الأولى استمرت ٩ أشهر، معركة ستالينجراد استمرت ٥ أشهر، معركة برلين في الحرب العالمية الثانية استمرت ١٤ يوما)، لكن ورغم استماتة التنظيم في الدفاع عن المدينة إلا أن سقوطها كان مسألة وقت قياسًا إلى التفاوت الهائل في حجم القوات والإمكانيات العسكرية واللوجستية بين القوات المهاجمة والعناصر المتحصنة بالمدينة، وأيضًا لاعتماد التنظيم إستراتيجية حربية عديمة الجدوى وتكيتكات قتالية أكدت تجارب سابقة عدم فعاليتها وأنها في أحسن أحوالها تؤخر الهزيمة ولا تمنع وقوعها.

أعلن حيدر العبادي عن انطلاق معركة الموصل في ٢٠١٦/١٠/١٧ بعد تعبئة كل الإمكانيات الممكنة وحشد قوات ضخمة، وصل مجموعها إلى أكثر من ١٠٠ ألف مقاتل، بين جيش وشرطة وقوات كردية (البيشمركة)

وحشد عشائري سني، ويمثل الحشد الشعبي كمقاتلين عقديين عصبها الأساسي، وتحظى هذه الجحافل بإسناد جوي ولوجستي من ٦٨ دولة، هم مجموع الدول المشكلة للتحالف الدولي لمحاربة التنظيم، يضاف إليهم حوالي ٥٠٠٠ جندي أمريكي يعملون في الخطوط الخلفية للقوات المهاجمة كمستشارين وخبراء عسكريين، بينما تُقدر أعداد عناصر التنظيم داخل المدينة ب ١٠ آلاف مقاتل وربما أكثر وبعد ٩ أشهر من المعارك الطاحنة أعلن حيدر العبادي عن انتهاء المعركة والسيطرة على كل أحياء المدينة، كما نشرت وكالة أعماق مقطعا مرئيًّا يظهر ما تبقى من عناصره وهم يقاتلون «حتى الرمق الأخير»، في آخر أحياء الجانب الغربي من الموصل.

سنحاول في هذه المقالة رصد الثغرات التي اكتنفت تكتيكات تنظيم الدولة وهو يحاول تأخير موعد سقوط عاصمته، وأخطاءه الإستراتيجية التي عصفت بوجوده وأعادته كما كان؛ تنظيمًا صغيرًا يلوذ بصحراء الأنبار، بل أسوأ مما كان بعدما بدد رصيده من الشرعية كمدافع عن سنة العراق، وكمكون من مكونات المقاومة العراقية، بسبب ما ارتكبه بحق المسلمين السنة -قبل غيرهم- في كل من العراق وسوريا وغيرها من البلدان التي امتد إليها سلطانه. ويمكن فرز هذه الأخطاء والثغرات إلى أخطاء على الصعيد العسكري والسياسي والإعلامي والاجتماعي.

١ على الصعيد العسكري

أعطى التنظيم أهمية كبرى لمعركة الموصل وخصص لها القسط الأكبر من موارده المالية والبشرية، وألقى بكل ثقله العسكري فيها، واعتبرها معركة مصيرية لا ينبغي له أن ينهزم فيها، ولذلك عندما خسر التنظيم الموصل تداعت معاقله الأخرى بسهولة، مثل تلعفر في العراق، ودير الزور والرقة في سوريا. كان واضحًا منذ اليوم الأول من المعركة أن تنظيم الدولة رصد معظم إمكانياته ومقدراته للمعركة، تجلى ذلك في قوافل السيارات المفخخة التي هاجم بها تجمعات الجيش العراقي، حيث وصل عددها مع دخول المعركة شهرها التاسع حوالي ٤٨٢ مفخخة[1]، كما سحب التنظيم سلاحه الثقيل إلى داخل المدينة واستقدم إليها النخبة المدربة من قواته، وعندما استنزفت هذه القوات، دفع التنظيم بكوادره إلى ساحة المعركة حيث ظهر أطباء ومهندسون وإعلاميون وهم يقودون عرباتهم المفخخة[2].

(١) صحيفة النبأ الناطقة باسم تنظيم الدولة الإسلامية العدد ٨٩

(٢) وثق التنظيم ذلك في إصداره المرئي « فرسان الدواوين» و « موكب النور» وغيرهما.



يُجمع الخبراء العسكريون أن إستراتيجية المواجهة المباشرة ومسك الأرض والجبهات الثابتة في ظل التفوق التقني والعسكري واللوجستي للخصم هو محض انتحار، وعندما أصر تنظيم الدولة على الاحتفاظ بمدينة كوباني (عين العرب) مع كثافة القصف الجوي بمختلف أنواع القنابل والصواريخ عُد ذلك انتحارًا جماعيًّا ومحرقة لعناصر التنظيم(٣). وتكرر نفس السيناريو في مدينة الموصل، لقد خالف التنظيم أهم مبادئ الحرب وتعليمات كبار المنظرين العسكريين ومن هذه المبادئ:

مبدأ الاقتصاد بالجهد: ويستهدف الحصول على أفضل النتائج بأقل جهد من القوات، وتظهر قيمة مبدأ الاقتصاد بالقوات، حين يكون اتساع الجبهة كبيرًا جدًّا بالمقارنة مع حجم القوات، أو عندما يكون العدو متفوقًا استراتيجيًّا(٤).

مبدأ المبادرة: ويعني عدم الجمود في تكتيكات أثبتت التجربة عدم جدواها، ولذلك فإن الانسحاب أمام ظروف غير مواتية هو عملية مبادرة بالرغم من أنه يبدو في الظاهر تراجعًا اضطراريًّا. وقد يفهم من المبادرة أنها عملية البدء أولًا لكن هذا شكل من أشكالها، فهي بمعناها الواسع تعني حسن التصرف ضمن الحالة المعطاة(٥).

مبدأ تركيز القوات: وهو مبدأ مكمل للمبدأ الأول وليس مناقضًا له(٦)، ويعني عدم بعثرة الجهود في معارك متفرقة وجبهات ممتدة كان بالإمكان تحييدها أو تأجيلها، عكس ما فعله تنظيم الدولة، الذي قاتل العشائر السنية والفصائل السورية والأكراد والأيزيديين وقوات النظام والقوات التركية في وقت واحد فقط في سوريا والعراق، ناهيك عن الأقطار الأخرى.

---

(٣) اعترف بعض قادة التنظيم بذلك في شهاداتهم التي نُشرت مؤخرا، مثل : زفرات الدولة الموءودة، أبو عبد الملك الشامي: https://justpaste.it/1aovf

(٤) الإستراتيجية والتكتيك في علم فن الحرب، منير شفيق، ص: ١١٤

(٥) الإستراتيجية والتكتيك في علم فن الحرب، منير شفيق، ص: ١٣٧

(٦) الإستراتيجية والتكتيك في علم فن الحرب، منير شفيق، ص: ١١٠

٢ على الصعيد السياسي

رغم مظلومية سنة العراق وعدالة قضيتهم، وهم يواجهون القتل والتهميش والتهجير الممنهج، إلا أن تنظيم الدولة لم يستفد من هذه المظلومية إلا بالقدر الذي يسمح له بحشد المزيد من سنة العراق خلف مشاريعه ومخططاته، بينما استغل خصومه قضية الأيزيديين وما ارتكبه التنظيم بحقهم ليجعلوا من معركتهم ضده قضية إنسانية عادلة، لقد عارض التنظيم أي خطاب سياسي مطمئن لمحيطه الإقليمي ولبعض دول الجوار، واعتبر ذلك «مداهنة» و«إقرارا بحكم الطواغيت»، ولم يحسن بالمرة اللعب على تناقضات المشهد السياسي العالمي، بل تفنن عبر أساليب ذبح وقتل الأجانب في استعداء دول العالم كافة، لقد كان دومًا كسب الرأي العام العالمي هدفًا أساسيًّا من أهداف حروب العصابات وحروب التحرير الشعبية.

٣ على الصعيد الإعلامي

كانت التغطية الإعلامية التي خصصها التنظيم لمعركة الموصل كثيفة ومتقنة عبر عشرات الإصدارات والمقاطع المرئية التي تظهر استماتته عناصره في القتال، وقوافل سياراته المفخخة وهي تستهدف تجمعات القوات المهاجمة، إعلام وإن غذى الروح المعنوية عند عناصره إلا أنه لم يوصل رسالتهم إلى العالم، إن الدور الذي يقوم به الإعلام العالمي لا يمكن أن يقوم به إعلام التنظيم وإن كان في غاية الاحترافية ويتحدث بكل اللغات. شهدت معركة الموصل مقتلة هائلة في صفوف المدنيين من نساء وأطفال وشيوخ لكن وبما أن التنظيم يرفض دخول الصحفيين الأجانب إلى مناطقه ويقطع رؤوسهم في أفلامه المرئية، فإن أولئك المدنيين لم يجدوا من ينقل معاناتهم إلى العالم. كان يمكن لمشاهد القتل والدمار وعمليات الإعدام التي ينفذها الحشد الشعبي ومشاهد الأطفال المقطعة أوصالهم أن تكون مادة لكسب الرأي العام العالي وتعاطف أحرار العالم، ولعنة تلاحق مجرمي الحرب الذين ارتكبوها، وربما تكون أدلة في محاكمات دولية لاحقة. إن كسب الإعلام العالمي الحر وتوفير الإمكانيات والضمانات اللازمة لممارسة دوره يعني فتح آفاق أرحب لقضيتك وترسيخًا لعدالتها أو على الأقل هو حرمان لخصمك من أحد أسلحته.

٤ على الصعيد الاجتماعي

يعتبر العمق الاجتماعي والامتداد الشعبي روح الحركات الثورية، إذ لا يمكن أن تستنبت فكرة ثورية في بيئة اجتماعية معادية لمبادئ الثورة وشعاراتها، هل يمكن مثلًا أن تذهب إلى الجنوب العراقي لتنادي هناك بمظلومية السنة! وهل يمكن أن تذهب إلى مناطق العلويين في سوريا لتنادي بالثورة ضد بشار! كان تنظيم

الدولة يحظى بدعم شعبي خصوصًا من سنة العراق؛ لكن إذلاله وتهميشه لعشائر العراق ووجهائه قوض ذلك الدعم وتلك الحاضنة الشعبية التي كانت ترفده بالرجال والموارد، وفي سوريا نفذ التنظيم جرائمه ضد كل شرائح المجتمع وطبقاته، وذبح كل رجال عشيرة الشعيطات في دير الزور إلا من استطاع الفرار منهم، ولذا فقد انهارت قواته في دير الزور لأنها معزولة اجتماعيًّا ومكشوفة شعبيًّا، ولأن عناصره يخافون من انتقام أهالي الضحايا الذين قتلهم؛ فالحاضنة الشعبية بالنسبة للحركات الثورية كالماء بالنسبة للسمكة.



بروتوكولات حكماء صهيون

وثيقة حقيقية أم مزورة؟

د. عمرو كامل

اشتد في هذه المسألة النزاع، وتضاربت فيها الأقوال، وما زال الخلاف دائرًا...

فيقول سرجي نيلوس (١٨٦٢ - ١٩٢٩) -أشهر من نشر البروتوكولات باللغة الروسية- في مقدمة كتابه:
«لقد تسلمت من صديق شخصي -وهو الآن ميت- مخطوطًا يصف بدقة ووضوح عجيبين خطة وتطور مؤامرة عالمية مشئومة، موضوعها الذي تشمله هو جر العالم الحائر إلى التفكك والانحلال المحتوم. هذه الوثيقة وقعت في حوزتي منذ أربع سنوات (١٩٠١)، وهي بالتأكيد القطعي صورة حقة في النقل من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد الأكابر ذوي النفوذ والرياسة السامية من زعماء الماسونية الحرة، وقد تمت السرقة في نهاية اجتماع سري بهذا الرئيس في فرنسا حيث وكر المؤتمر الماسوني اليهودي هناك».

وعلى النقيض يقول البروفيسور الروسي اليهودي ياكوف رابكن:
«بروتوكولات حكماء صهيون هي وثيقة مزيفة أخرجت منذ قرن على أمر من شرطة قيصر روسيا السرية»[١].

كان من أوائل من طرحوا رؤية مغايرة لما عهدناه -على الأقل في عالمنا العربي- هو الصحافي الإنجليزي فيليب جرافز (١٨٧٦ - ١٩٥٣)؛ فعلى مدار ثلاثة أيام، في الفترة من ١٦ إلى ١٨ أغسطس عام ١٩٢١، نشر جرافز ثلاث مقالات في صحيفة (التايمز) اللندنية تحت عنوان (المؤامرة اليهودية العالمية) Jewish world plot، ينقب فيها عن حقيقة هذه البروتوكولات. وقد أشار الأستاذ عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) إلى

(١) ياكوف رابكن: المناهضة اليهودية للصهيونية، مقدمته للطبعة العربية، ص٨، مركز دراسات الوحدة العربية، ط. الأولى، ٢٠٠٦

هذه المقالات في تقديمه لترجمة التونسي العربية للبروتوكولات، والمقالات يسهل الوصول إليها على الإنترنت.

يقول جرافز في مقالته الأولى (الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٩٢١):

«هذه البروتوكولات لم تحظَ باهتمام كبير حتى قيام الثورة الروسية في عام ١٩١٧ وظهور البلاشفة، والذين ضموا في صفوفهم الكثير من اليهود أظهروا معتقدات سياسية تلتقي في بعض النقاط مع تلك المذكورة في البروتوكولات، مما أدى بالكثير إلى الاقتناع بأن اكتشاف نيلوس المزعوم كان حقيقة. انتشرت البروتوكولات على نطاق واسع وترجمت إلى عدة لغات أوروبية. ولكن العديد من المناقشات عقدت كذلك من أجل محاولة إثبات زيفها».

ثم ينتقل جرافز لاستعراض أدلته؛ فيذكر أنه حينما كان يعمل مراسلًا لصحيفته في القسطنطينية (أو إسطنبول كما صار اسمها بعد عام ١٩٣٠)، دفع إليه أحد المراسلين رفض ذكر اسمه -غالبًا لأسباب متعلقة بزمانه، وكناه بمستر إكس، وذكر أنه أرثوذكسي روسي مؤيد للنظام الملكي ومهتم بالمسألة اليهودية الروسية- دفع إليه نسخة من كتاب للأديب والمحامي الفرنسي موريس جولي (١٨٢٩ - ١٨٧٨) اسمه (حوار في الجحيم بين مكيافيلي ومنوتيسكيو، أو سياسة مكيافيلي في القرن التاسع عشر، بواسطة معاصر) Dialogue aux enfers entre Machiavel et Montesquieu, ou la politique de Machiavel au XIX^e siècle, par un contemporain طبع لأول مرة في جنيف عام ١٨٦٤، ثم ظهرت منه طبعات أخرى في بروكسل، وفيه ينتقد جولي نظام نابليون الثالث الفاسد (١٨٠٨ - ١٨٧٣). ولقد صاغه بأسلوبه الساخر في صورة خمسة وعشرين حوارًا دار بين روح كل من نيكولو مكيافيلي وشارلز مونتيسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) مقسمة إلى أربعة أقسام. وفيه يمثل مونتيسكيو التيار الليبرالي في حين يمثل مكيافيلي الطغيان والاستبداد، ويقرن جولي بأسلوبه بين الاتجاهين ويصف الطرق السرية التي من خلالها تتمخض الليبرالية عن طاغية مثل نابليون الثالث.



وترتب على تأليف جولي للكتاب أنه تم اعتقاله من قبل شرطة نابليون الثالث وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر شهرًا، وبغرامة مالية قدرها مائتي فرانك (حسب ما ذكرت مقدمة طبعة بروكسل لعام ١٨٦٨)،

وصادرت الشرطة ما توصلت إليه من نسخ، وحظرت طباعة أو نشر الكتاب، وذلك حتى عام ١٩٣٣.

يعرض فيليب جرافز في مقالته الثانية (الأربعاء ١٧ أغسطس ١٩٢١) عدة مقارنات بين نصوص الكتاب الفرنسي والبروتوكولات، أذكر هنا مثالًا واحدًا فقط اختصارًا، وذلك بعد أن طابقته بنسخة بروكسل لعام ١٨٦٨ من كتاب موريس جولي المذكور.

جاء في البروتوكول الثاني عشر: «ستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضًا... وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندي فشنو، لها مئات الأيدي، وكل يد ستجس نبض الرأي العام المتقلب».

وجاء في الحوار الثاني عشر على لسان مكيافيللي (مترجم): «مثل الإله فشنو، سيكون لصحافتي مائة ذراع، وسوف تمد هذه الأذرع يد العون لكل الآراء المختلفة الموجودة على الساحة في البلاد مهما كانت».

وهذا نص ما جاء في الحوار الثاني عشر في كتاب جولي:

«Comme le dieu Wishnou, ma presse aura cent bras, et ces bras donneront la main à toutes les nuances d›opinion quelconque sur la surface entière du pays».

أما عن فقرات البروتوكولات التي لم تقتبس من كتاب موريس جولي، فيُرَجِّح جرافز في مقالته الثالثة (الخميس ١٨ أغسطس ١٩٢١) أنها «صيغت من قبل البوليس السياسي الروسي بالاستعانة بعملاء يهود مجندين للتجسس على إخوانهم في الدين Coreligionists».

كيف تحول (حوار) جولي إلى (بروتوكولات) حكماء صهيون التي نشرها نيلوس؟

تشير بعض الأبحاث إلى أن (حوار) موريس جولي منتحل من رواية (ألغاز الشعب) Les Mystères du Peuple الشهيرة للروائي الفرنسي أوجين سُو (١٨٠٤ – ١٨٥٧)، والتي صدرت قبل كتاب جولي بسبع سنوات، وفيها نسج (سُو) من وحي خياله شخصيات عرَّفها بأنها مجموعة متآمرة من (اليسوعيين الشيطانيين).



ثم نسج على منوال موريس جولي كاتب آخر، وهو الألماني هيرمان جويدشي (١٨١٥ – ١٨٧٨)، وكان عميلًا للبوليس السري البروسي ومعروفًا بمعاداته للسامية. فكتب في روايته Biarritz الصادرة عام ١٨٦٨ فصلًا بعنوان (عند المقبرة اليهودية في براج)، يصور فيه انعقاد مجلس لجمعية سرية من الحاخامات المثلين لقبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، حيث يجتمعون مرة كل عام في منتصف الليل عند مقابر اليهود، وذلك كي يناقشوا ما تم إنجازه في مؤامرتهم الطويلة الأمد للسيطرة على العالم. وفي نهاية المجلس يعرب رئيسهم عن رغبته في أن يصبح اليهود ملوك العالم خلال المئة عام المقبلة. ولقد اقتبس جويدشي هذا الفصل من روايتي جولي وسُو؛ حيث استبدل جماعة الحاخامات السرية بالمتآمرين اليسوعيين في رواية سُو، وجعل (حوار) جولي هو نتاج هذا الاجتماع السري.

ولقد اجتُزئ هذا الفصل من كتابه وترجم إلى الروسية وطبع مفردًا في سان بطرسبرج ولاقى رواجًا كبيرًا، ولعل هذا ما أشار إليه فيليب جرافز في مقالته الثالثة السابق ذكرها بصورة مقتضبة حينما قال: «وقبل الثورة الروسية الأولى بعدة سنوات كانت هناك إشاعة رائجة عن وجود مجلس سري للأحبار اليهود يخطط بصورة متواصلة ضد الأرثوذكس».

ناقشت عدة دراسات حقيقة البروتوكولات، منها كتاب المؤرخ البريطاني نورمان كون (١٩١٥ – ٢٠٠٧) (مذكرة عن جرائم الإبادة الجماعية) Warrant for Genocide الصادر عام ١٩٩٦،وكتاب المؤرخ الفرنسي بيير أندريه تاجياف وهو بعنوان (التزوير واستخداماته)Faux et Usages d›un Faux الصادر عام ١٩٩٢، والذي وصفه إريك كونان الصحافي بمجلة (الإكسبريس) الفرنسية بأن تاجياف قدم فيه «التحليل الأقرب إلى الكمال»[2].

وكان من أهم الأبحاث في هذا الشأن هو بحث مؤرخ الأدب الروسي ميخائيل ليبيخين؛ وليبيخين هو باحث محقق في تواريخ المطبوعات الصادرة عن مكتبة أكاديمية العلوم في سان بطرسبرج، متخصص في المطبوعات الروسية الصادرة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وكان أمينًا لأرشيف المعهد الأدبي في روسيا، ومشرفًا على معجم الأعلام الروسي الضخم المكون من ٣٣ مجلدًا والذي يضم عددًا هائلًا من رجال الطباعة والنشر الروس خاصة في نهاية العهد القيصري. ولقد نشر الصحافي الفرنسي إريك كونان نتائج بحثه في مقالته.

(2) Eric Conan: Les secrets d'une manipulation antisémite, L'Express, Novembre 18, 1999

أضف إلى ذلك بحث القاضية الإسرائيلية هداسا بن-إيتو وهو بعنوان (الأكذوبة التي لا تموت، بروتوكولات حكماء صهيون) The Lie that Wouldn't Die, The Protocols of The Elders of Zion، والذي صدر بالعبرية عام ١٩٩٨، ثم صدرت منه نسخة إنجليزية عام ٢٠٠٥.



ولقد تبين من خلال نبش الباحثين للأرشيفات الروسية والفرنسية والسويسرية وغيرها، ومن خلال محاضر محاكمة برن الشهيرة، كذلك من خلال المقابلات التي أجريت مع عشرات الشهود على الأحداث، أن صانع البروتوكولات هو عميل محترف يدعى ماثيو جولوفينسكي (١٨٦٥-١٩٢٠)، كانت مهمته تتلخص في توجيه الصحف الداعمة للنظام القيصري المحافظ.

نفذ جولوفينسكي هذه المهمة بإيعاز من بيوتر راتشكوفسكي (١٨٥٣ - ١٩١٠) رئيس مكتب البوليس السياسي الروسي (أوخرانا) في باريس، وكان الأخير من الزمرة الأرثوذكسية المتعصبة، وأحد مؤسسي منظمة الأخوة المقدسة المؤمنة بوجود مؤامرة يهودية-ماسونية تتستر وراء التيار الليبرالي والإصلاحي في روسيا، وكان منشغلًا بكيفية إقناع نيكولا الثاني إمبراطور روسيا (١٨٦٨ - ١٩١٨) بصحة معتقده وبضرورة إصدار القرارات الوقائية لمواجهة ذلك الخطر الداهم.

تلقفت البروتوكولات عدة أيدي، منها يد المتصوف سرجي نيلوس المعروف بعداوته الشديدة لليهود، فأردفها بكتابه المعنون بـ (الضئيل يحتوي العظيم، والمسيح الدجال، كحادث سياسي وشيك، مذكرات رجل أرثوذكسي)، والذي يصف فيه الثورة الفرنسية (١٧٨٩ - ١٧٩٩) بأنها نذير شؤم بخروج المسيح الدجال. فجعل الوثيقة فصلًا في الكتاب، ودفع بنسخة إلى نيكولا الثاني ليطلع عليها.

حينما راجت البروتوكولات وأثارت القلاقل في داخل روسيا، أمر رئيس مجلس الوزراء الروسي بيوتر ستولين (١٨٦٢ - ١٩١١) بإجراء بعض التحريات السرية حولها، والتي كشفت خيوط (المؤامرة الباريسية). حينها أخبر ستولين نيكولا الثاني بالأمر، والذي رغم ولعه الشديد بها، أصدر قراره بمصادرة نسخ البروتوكولات ومنع نشرها في روسيا، وقال: «إن الدوافع الطيبة لا ينبغي أن تدعم بمثل هذه المسالك الحقيرة»[٣]. ولكن رغم

(3) Burtsev, Vladimir: The Protocols of the Elders of Zion: A Proved Forgery (in Russian), Paris: Jewniverse, p. 106

ذلك، وبسبب تلك الدوافع الطيبة! استمرت البروتوكولات في الانتشار.

وبعد اندلاع الثورة الروسية في عام ١٩١٧ التي عرفت بأنها ثورة يهودية من الدرجة الأولى، راجت البروتوكولات في أوروبا، وترجمت إلى عدة لغات، ثم انتقلت إلى أمريكا وقد تبنى نشرها هنري فورد (١٨٦٣ - ١٩٤٧) رائد صناعة السيارات الأمريكية. وظهرت أول نسخة عربية عام ١٩٢٦ في دورية الرومان الكاثوليك في القدس المعروفة باسم (رقيب صهيون)، وتوالت بعدها الترجمات العربية التي من أشهرها ترجمة محمد خليفة التونسي الصادرة في عام ١٩٥١.

للبعض أن يقول: إذا كانت اليد اليهودية الصهيونية متوغلة ومتحكمة بهذا الشكل المشاهد للعيان، فما الداعي لهذا الجدل البيزنطي العقيم؟

وجوابًا أقول: إن هذا الجدل البيزنطي له مغزى، وهو الإشارة إلى خطورة الاعتقاد في وجود مؤامرة يهودية عالمية منظمة تضرب بجذورها في عمق التاريخ البشري، بدءًا بمحاولة قتل المسيح ابن مريم -عليه السلام- ومرورًا بميلاد الدولة الصهيونية اللقيطة في الرابع عشر من مايو عام ١٩٤٨، كما يذكر محمد خليفة التونسي على سبيل المثال في مقدمة البروتوكولات: «لليهود منذ قرون خطة سرية غايتها الاستيلاء على العالم أجمع، لمصلحة اليهود وحدهم، وكان ينقحها حكماؤهم طورًا فطورًا حسب الأحوال، مع وحدة الغاية».

فكأن اليهود صاروا بذلك (آلة قدرية) تهيء الأجواء وفقًا لمعتقداتهم، وكأن البشر صاروا بين أيديهم أحجارًا على رقعة الشطرنج، كما يصف وليم جاي كار (١٨٩٥ - ١٩٥٩) في كتابه المعروف.

لا نستطيع إنكار وجود مؤامرة أكيدة واضحة المعالم، كذلك صحيح هو قول القائل: «إذا كان عدوك نملة فلا تَنَمْ له»، ولكن ما نرفضه هو اختزال هذه المؤامرة وحصرها في هذه الزاوية الضيقة، والتي بالتالي تنسب إلى اليهود قوة عجائبية خارقة يرتد إليها كل الشرور والكوارث العالمية، وهذا بالتالي يزيد من هيبة العدو ويؤدي بنا إلى الفشل في تقدير قوته الحقيقية، التي هي في حقيقة الأمر هشة وتتأثر بأبسط أعمال المقاومة كانتفاضة السكاكين والرباط في المسجد الأقصى بعد أن منعت الصلاة فيه وأقيمت بوابات التفتيش الإلكترونية على مداخله، فمثل هذه التحركات الشعبية العفوية لا تزال تؤرق مضاجعهم وتقذف في قلوبهم الرعب وتبشرهم بالزوال، لولا الوجود الفعلي لأعداء أُخَر من غير يهود يمثلون في كثير من الأحوال دعمًا وخطرًا أشد من اليهود أنفسهم.

حقيقة أعجبني قول الباحثة الدكتورة ريجينا الشريف: «معظم المؤرخين والمحللين السياسيين يعزون نجاح الصهيونية -الذي بلغ أَوْجَهُ في قيام دولة يهودية في إسرائيل- إلى المواهب السياسية والديبلوماسية لليهود الصهيونيين من أمثال حاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢)، أو لويس برانديس (١٨٥٦ - ١٩٤١)، أو ناحوم سوكولوف (١٨٥٩ - ١٩٣٦)، الذين عملوا بلا كلل على التأثير في الشخصيات غير اليهودية. ويعزى معظم الفضل في صدور وعد بلفور، عادة، إلى وايزمان وطاقاته الجبارة وتصميمه وإخلاصه... ويندر أن تعزى قصة نجاح الصهيونية لغير اليهود. غير أن مثل هذه التفسيرات لقوة الصهيونية ساذجة جدًا، إذ إن مواهب وايزمان في الديبلوماسية الدولية والإقناع، مهما بلغت من القوة، ما كانت لتؤتي ثمارها لو لم يكن أشخاص من غير اليهود قد بذروا بذور الصهيونية ورعَوْها قبل ظهور كتاب (الدولة اليهودية) لهرتزل عام ١٨٩٦»[٤].

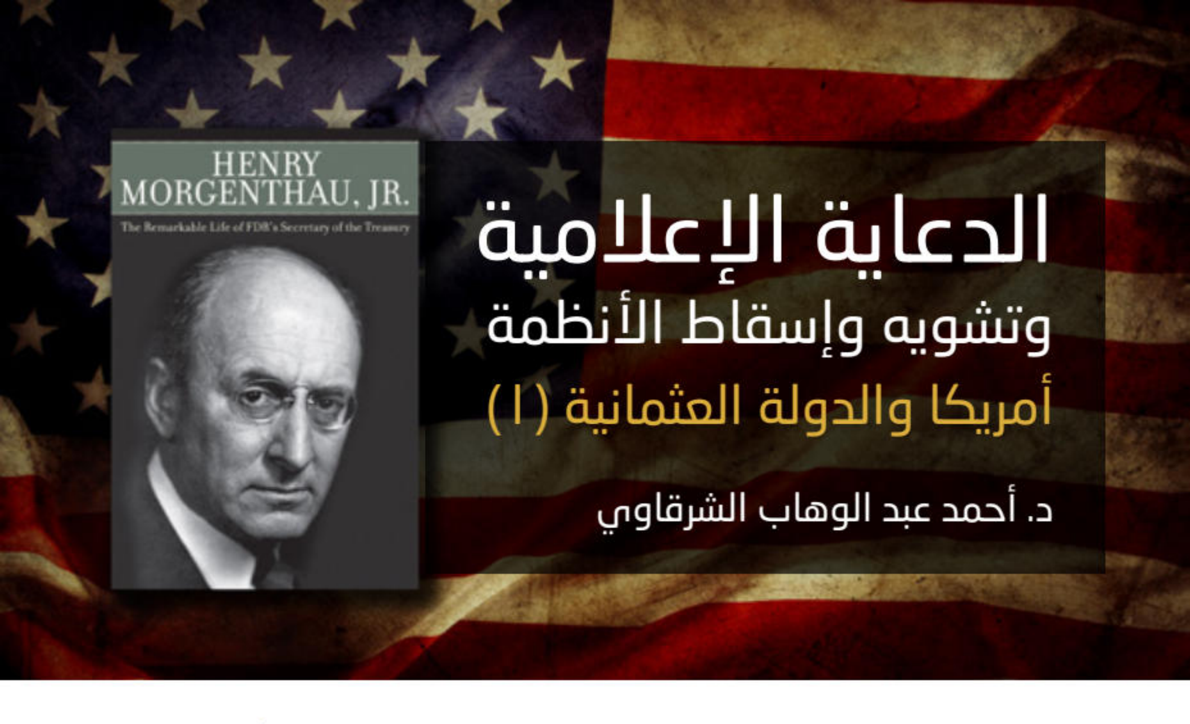
ولذلك، فالمرفوض هو ربط كل الحوادث والثورات والانقلابات العالمية (كالثورة الفرنسية والبلشفية) واختزالها بكل بساطة في المؤامرة اليهودية الكونية بغض النظر عن مركب الظروف والدوافع المحيطة، لأن هذا من الكسل الفكري، وعقلنا البشري -كا يذكر المسيري رحمه الله- «إن لم يجد نموذجًا تفسيريًا ملائمًا لواقعة ما، فإنه يميل إلى اختزالها وردها إلى أياد خفية تُنسَب إليها كافة التغييرات والأحداث»[٥]، وهذه اليد هي اليد اليهودية عادة!

وعلى كلٍّ، فقد يقال في حق اليهود، إن جاز لنا القول: «رب ضارة نافعة»!؛ فإن الترويج لهذه البروتوكولات خدم كثيرًا -وما زال- المصالح الصهيونية من الناحية العملية، والتي صار واضح للعيان طغيانها وهيمنتها على مقدرات الكثير من البلاد، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل المعلِّق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس يقول: «إن البروتوكولات [بسبب أثرها الذي يولِّد الرهبة في النفوس ويدفع الناس لمغازلة إسرائيل واليهود] تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصًا معاديًا لليهود، وإنما يهودي ذكي يتسم ببعد النظر!»[٦].

(٤) ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي، ص(١٠)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، باختصار وتصرف يسير.

(٥) عبدالوهاب المسيري: اليد الخفية، ص١١

(٦) السابق ص٨-٩، نقلاً عن مقالة يوئيل ماركوس في جريدة (هآرتس)، بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩٩٣



الدعاية الإعلامية
وتشويه وإسقاط الأنظمة
أمريكا والدولة العثمانية (١)

د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي

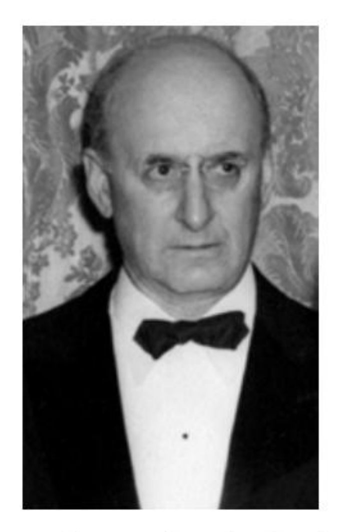
من باب المنطق وجلد الذات وإلقاء التبعة على كاهل الشعوب المنهزمة ؛ ترانا دائما نحاول النفي الكامل لنظرية المؤامرة ، وتفسير تصرفات وعداء القوى الكبرى بأنها المصالح والسياسات التي لا تعرف الأخلاق ، لكن حقائق التاريخ تشير بقوة إلى كون المؤامرة جزء لا يتجزأ من تلك الممارسات .

وتاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر هو نتيجة طبيعية لما حدث بعد الحرب العالمية الأولى من انهيار لدولة الخلافة العثمانية وتشرذم الشعوب التابعة لها وفقا لمخطط سايكس / بيكو ، والمشروع الأمريكي المسمى (الشرق الأوسط الكبير) يجدد ذلك المخطط ويعيد استكمال تحقيق وعد بالفور .

وتحاول هذه المقالة العودة إلى أصول واحدة من تلك المؤامرات التي لا تقل خطورة عن سابقاتها ، بل ما يزال أثرها أيضا واحدة من أوراق الضغط لتشويه وإسقاط تركيا ، ووريثة الدولة العثمانية في مكانها ومكانتها ، ومنع قيام قوى شرق أوسطية ذات أيديولوجية إسلامية.

حيث يقوم السفير الأمريكي لدى الدولة العثمانية قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى باختلاق أكاذيب ونشرها كمذكرات ؛ لتأليب الرأي العام الأمريكي والعالمي ضد تركيا وألمانيا ، بخلفية دينية وإنسانية حول ادعاء اضطهاد الأقلية المسيحية الأرمنية ، وسعي دول الحلفاء للقضاء على هؤلاء ، وتخليص أوربا والعالم من العثمانيين ، وسرعان ما تنتشر تلك الدعاية ويؤثر الإعلام في العالم تأثير السحر ، ثم يمر القرن العشرين كله ولا يستطيع أن يمحو هذه الأكاذيب .

السفير الأمريكي في العاصمة العثمانية



هنري مورجنثاو Henery Morgenthou (١٨٥٦ - ١٩٤٦م) متعهد عقارات بمدينة نيويورك ، شغل منصب مدير اللجنة المالية للحزب الديمقراطي أثناء حملة الانتخابات الرئاسية ل (وودرو ولسن) ١٩١٢ ، وبعد انتخاب ولسن ؛ حصل كمكافأة على وظيفة سفير لدى الإمبراطورية العثمانية ، فرفض ، إلا أن التدخل الشخصي للرئيس ولسن وإلحاح حاخام نيويورك (ستيفرو) أقنعاه مع ذلك بإعادة النظر في العرض .

وقد وصل مورجنثاو وعمره ٥٨ عامًا إلى العاصمة العثمانية في ذلك الوقت، ليتسلم مهام منصبه في ٢٧ نوفمبر ١٩١٣ ، حيث بقي في هذا المنصب ستة وعشرين شهرًا عاد بعدها إلى الولايات المتحدة في فبراير [١]١٩١٦.

كتابه « قصة السفير مورجنثاو » المكتوب بعد سنتين من عودته ، يحكي تاريخ دخوله في عالم الدبلوماسية الدولية، حتى تاريخ رحيله عن العاصمة العثمانية .

قصة كتاب (هنري مورجنثاو)

وعند تحليل أصول « قصة السفير مورجنثاو» يجب أن نبدأ بدراسة الخطاب الذي أرسله السفير مورجنثاو في ٢٦ نوفمبر ١٩١٧ لصديقه وموضع ثقته ، رئيس الولايات المتحدة وودرو ولسن ، لأن في هذا الخطاب الذي لم ينشر إلى الآن ، يعرض مورجنثاو فكرة كتابة كتاب ، وكذلك الأهداف التي دفعته إلى ذلك ، وقد تضمن خطابه نداءً يطلب فيه مباركة الرئيس لهذا المشروع. كان هدفه الوحيد يكمن في إثارة ومساندة الرأي العام للمجهود الحربي للولايات المتحدة ، وذلك عن طريق ممارسة عمل دعائي ضد ألمانيا وضد تركيا يرمي إلى « تحقيق النصر لسياسة الحرب الحكومية »، وليس غريبًا حصول مورجنثاو على مباركة الرئيس ، فقد عبّر عن مشروعه لولسن بالعبارات التالية : «.... لقد وهن عزمي من قوة المعارضة المعلنة ، ومن فداحة اللامبالاة حيال الحرب ، وكذلك من غياب الحماس لدى هؤلاء الذين يساندون الحرب ... أفكر في كتابة كتاب حيث

(1) Heath W. Lowery: Les Dessous Des Memoire Del› Ambassadeur Morgenthaw, Istanbul, 2001, P.: 4 - 5.

أكشف ليس فقط تدخل ألمانيا في تركيا وفي البلقان، ولكن هذا النظام كله ، وكما يبدو في كل بلد في العالم، ففي تركيا تظهر الروح التشاؤمية لألمانيا في أسوأ صورها ، حيث أدت إلى أبشع جريمة عرفها التاريخ ألا وهي مذبحة الأرمن . إن هذا الموضوع خاصة وتآمر ألمانيا سيؤثر حتمًا في الجماهير الأمريكية ، في المدن الصغيرة وفي المناطق الريفية للبلاد ، بشكل لا تستطيع أن تفعله أية ظاهرة أخرى للحرب، وسوف تقنعهم بضرورة الاستمرار في الحرب حتى النصر ... يجب علينا الانتصار لسياسة الحرب الحكومية ، وذلك بأن نأخذ في الاعتبار كل إجراء أو كل وسيلة شرعية للوصول لذلك[٢].



جاءت موافقة ولسن التي طلبها مورجنثاو ليبدأ مشروعه ، وفي الواقع لم يبدأ المشروع إلا بعد أن وافق ولسن وكتب بذلك « أرى أن خطتك لكشف بعض مظاهر التآمر التركي والألماني بالكامل ممتازة وآمل أن تبدأ في كتاب يتحدث عنها»(٣).

وبمجرد استلام خطاب ولسن بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩١٧ بدأ مفاوضات رسمية مع الناشر[٤].

عندئذ استجاب مورجنثاو للمساعي الأولية لكل من بورتن ج. هندريك ودبل داي وباج وشركاؤهم الذين يملكون مجلةWorld Work، وبدأ المشروع يتخذ شكلاً عمليًا[٥].

يبدو إلى حد ما مدهشًا أن يتبادل رئيسا الولايات المتحدة الأمريكية الرسائل مع سفير سابق في موضوع من هذا النوع، إلا أنه كان زمن حرب .

أرباح دعائية .. ودولارات

وبعد أقل من عام من تاريخ رسالة مورجنثاو إلى ولسن تم نشر الكتاب على شكل حلقات شهرية في أشهر مجلات الولايات المتحدة The World's Work (١٢٠ ألف نسخة).

(٢) أهم مجموعة عامة من المستندات عن حياة وعمل السفير هنري مورجنثاو (1856– 1946) موجودة في مكتبة الكونجرس بواشنطن في قسم المخطوطات تحت عنوان « أوراق هنري مورجنثاو»، LC: PHM – Lobine No .

(٣) LC: PHM- Bolinr No: 8 : خطاب 27 نوفمبر 1917 من الرئيس وودرو ولسن إلى هنري مورجنثاو

(٤) راجع أيضًا خطابات فرنك دبل داي إلى هنري مورجنثاو بتاريخ 23 نوفمبر و 5 ديسمبر 1917 وكذلك خطابات أركور باج إلى هنري مورجنثاو بتاريخ 8 و20 ديسمبر 1917 بعد هذا الخطاب الأخير كانت كافة الاتفاقات على العقد كاملة .

(٥) FOR: HMS- Bolinr No: 11 .

أعيد نشر هذه الحلقات في أكثر من اثني عشرة من كبريات صحف البلد التي يصل عدد نسخها الإجمالي إلى ٢,٦٣٠,٢٥٦ نسخة[٦].

إجمالاً؛ فإن هدف مورجنثاو كانت الإسهام في مجهودات حرب الولايات المتحدة بكتابة كتاب يمكن -وفقًا لقوله- أن يؤثر على الجماهير الأمريكية في المدن الصغيرة ومناطق البلاد الريفية أكثر مما يمكن أن يفعله مظهر آخر من مظاهر الحرب(٧) .

وقد تحقق هدفه بصورة تفوق كل آماله بالفعل ، بمجرد أن بدأت The World's Work نشر حلقات الفصول الأولى من كتابه في مايو١٩١٨، تلقى مورجنثاو عرضًا من هوليود لحقوقه في إنتاج فيلم عن قصته. وهذا العرض كان مصحوبًا بوعد بـ٢٥ ألف دولار لصالحه.

بعد تحمس مبدئي وكتابة سيناريو أولي للفيلم[٨] هبط حماس مورجنثاو، عند تلقي خطابا ثانيا من الرئيس ولسن عبّر فيه عن رفضه التام ، بالعبارات التالي: « أقدر لك استشارتك لي في مسألة معرفة إذا ما يمكن إنتاج الكتاب سينمائيًا وأقول لك بوضوح أني آمل ألا تفعل شيئًا بهذا الصدد... أعتقد شخصيًا أننا ذهبنا بعيدًا جدًا في هذا الاتجاه . إنها ليست فقط مسألة ذوق، لا أود إطلاقًا أن أستسلم لذوقي في مثل هذه المسألة، ولكنها مسألة مبدأ ... ليس هناك أية منفعة يمكن أن نقوم بها الآن خاصة بمذبحة الأرمن ، لاسيما وأن موقفنا نحو تركيا قد تحدد . وليس هناك أي داع لتقويتها أكثر من ذلك[٩].

لقد تخلى ولسن عن قضيته الإنسانية تجاه الأقلية المسيحية المضطهدة، لسبب بسيط هو قوله : (ليس هناك أية منفعة) ، لاسيما وقد تمت بعض التفاهمات والموائمات السياسية ، حيث (أن موقفنا نحو تركيا قد تحدد) !!

فقد جلست أمريكا في مؤتمر لوزان على كرسي الحَكَم ووزعت الأنصبة والأراضي التي كان يملكها رجل أوربا المريض (الدولة العثمانية) في ثلاث قارات ، وزعتها على المنتصرين .

(٦) ثاني أكبر مجموعة من مستندات مورجنثاو توجد في مكتبة الرئيس فرانكلين ديلانو روزفيلت بهوايد بارك بنيويورك، حيث يشكل جزءًا من المجموعة المعنونة: «مستندات هنري مورجنثاو الابن «الابن الوحيد للسفير مورجنثاو وعضو لعدة سنوات في حكومة فرانكلين روزفلت FDRL HMJ/ Gaer- Boite no .

(٧) LC: PHM- Bobine no ٨ خطاب هنري مورجنثاو إلى الرئيس ولسن بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩١٧.

(٨) Hendricg / Rusnak من بين المعلومات المقدمة من روبير روسناك والمتعلقة بتعاون مورجنثاو وهندريك توجد 8 صفحات من مستند عنوانه : «Proposal for a Moving Picture on the Near East, Based to a Considerable Extended on Ambassador Morganthau›s Story».
في أعلى هذا المستند توجد الملاحظة التالية مكتوبة بخط اليد : « هذا المشروع الكبير الذي من أجله منحنا رجال السينما 25000 دولار ، قد توقف بسبب النهاية المفاجئة للحرب !! بورتن جسي هندريك .

(٩) LC: PHM - Bobine no 8 خطاب الرئيس ولسن إلى هنري مورجنثاو بتاريخ 14 يونيو 1918 نقلًا عن : H. Lowery: Op. Cit., P.: 26 .

من الذي كتب (قصة السفير مورجنثاو) ؟

وتتضح بقية خيوط المؤامرة عندما نعرف أن السفير مورجنثاو كان أقل المشاركين نصيبا في تدوين الكتاب ، لكنه كان صاحب نصيب الأسد في عائداته التي ما تزال تحصد حتى الآن .

إن مذكرات مورجنثاو في استانبول، والمكونة من يومياته ومن خطاباته العائلية، تم إعادة صياغتها مبدئيًّا مع مورجنثاو، وأندونيان، وهندريك، وتم تحرير النص بواسطة سكمافونيان لصالح الإدارة الأمريكية، وبعد ذلك كانت المراجعة الدقيقة بواسطة وزير الخارجية الأمريكي روبرت لانسينج (لأغراض تنفيذية)، وأخيرًا كتبت قصة السفير مورجنثاو بواسطة برتون هندريك(١٠).

في حقيقة الأمر كتب هذا الكتاب بورتون ج. هندريك كما ورد في خطابه إلى مورجنثاو بتاريخ ٧ إبريل ١٩١٦ ، وطبقًا لخطابه في ٥ يوليو ١٩١٨ ، وعد هنريك بـ ٤٠٪ من الأرباح القادمة من الكتاب طوال العمر، صرح بورتون ج. هندريك قبل بضعة أشهر من وفاته في ١٩٤٩ أنه كان الشخص المستخدم في كتابه هذا العمل[١١].

وهو عمل اشترك فيه أيضًا سكرتير الدولة روبرت لاستننج . قرأ لاستننج كل صفحة من المخطوطة قبل نشرها سواء حلقات أو في الكتاب. وقد قام باقتراحات وحذف منها .

طلب لاستننج من مورجنثاو عدم ذكر اسمه في خطاب أرسله إليه في ٢ أكتوبر ١٩١٨ في مقدمة الكتاب، استخدم الكتاب مقتطفات ادعي أنها أقوال من الوزراء العثمانيين من أمثال طلعت باشا وأنور باشا ، صور هندريك القادة العسكريين الأتراك على أنهم شخصيات غير إنسانية[١٢].

وكان ثمة شركاء آخرين في تدوين أصول هذا الكتاب ...

كان مورجنثاو يملي خواطره على سكرتيره الشخصي وهو أرمني تركي يدعى (هاجوب س. أدونيان) ، بالإضافة إلى ذلك كان مورجنثاو يقوم بكتابة خطابات مطولة أسبوعيًا لعدد من أعضاء أسرته في أمريكا.

---

(١٠) ( ) H. Lowery: Op. Cit., P.: 46 .

(١١) () H. Lowery: Op. Cit., P.: 21 .

(١٢) () I bid, P.: 22.

وهذه الخطابات أيضًا أعدها أدونيان. وكما قال مورجنثاو نفسه في خطابه في تاريخ ١١ مايو ١٩١٥ : مكتوبة حقيقة على يد أدونيان[١٣].

وكان أدونيان تلميذ سابق في كلية روبرت الأمريكية في استانبول، وأصبح مستشارًا وناصح لمورجنثاو، ترك تركيا مع السفير لمساعدته في أعماله، وقد كتب مورجنثاو عن خدماته ، وأنه لا يستطيع الاستغناء عنه.

وكان الأرمني أرشاج ك . سكمافونيان مترجمًا ومستشار لمورجنثاو ؛ إذ كان مورجنثاو لا يعرف أيًا من اللغات التي تتحدث بها استانبول، المستخدمة ليصاحبه تقريبًا في كل زيارة رسمية، وكذا الاجتماعات مع رجال الأعمال الأمريكيين والمبشرين ، كما ساعد السفير في كتابة مراسلاته، ونقل أيضًا إلى واشنطن وظل مستشارًا خاصًا في قسم التوظيف في الولايات المتحدة .

وصارت هذه المذكرات الملفقة أو المزورة هي المرجع الأساسي لكل برلمانات الدول ومشرعيها في اتخاذ موقف من العثمانيين وتاريخهم واعتبارهم صناع أول هولوكوست ضد الأرمن في القرن العشرين ، وحتى الآن !!

---

(١٣) () Lowery: Op., Cit., P.: 8 - 9.



محاولة لفهم العقل التفاوضي

محمد شعبان صوان

تساؤلات الشارع العربي والإسلامي

ينتشر العجب بين قطاع واسع من الشعوب العربية والمسلمة من استمرار نهج المفاوضات لمدة عشرات السنين دون نتيجة عملية حتى الآن، ويستنكر المتعجبون هذا الاستمرار في ظل تعنت وتوحش الجانب الصهيوني ومسايرة الراعي الأمريكي له بل مناصرته إياه دون أن يكون للجانب الفلسطيني أي نصيب من المسايرة والمناصرة إلا على صعيد الكلام أحياناً، ويعجز المواطن العادي المعني بقضية فلسطين عن تفسير هذه الظاهرة التي يرى فيها جرياً لا ينقطع خلف سراب وأوهام.

شروط الحل الأمريكي

ولفهم ذلك علينا في البداية أن نتذكر أن المفاوض يسمع في الغرف المغلقة ما لا يقال علناً، وفي نهاية سنة ١٩٧٣ اجتمع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر مع وزير الخارجية البريطاني لبحث مؤتمر جنيف وكشف عن موقف الولايات المتحدة الذي سيحكم مسيرة «عملية السلام» إلى اليوم، وكان ذلك بعد انعقاد مؤتمر القمة العربي في الجزائر عقب حرب رمضان/ أكتوبر والذي طالب فيه المجتمعون بانسحاب الكيان الصهيوني من الأراضي العربية المحتلة واستعادة حقوق شعب فلسطين.

قال كيسنجر إن الولايات المتحدة مستعدة لممارسة أقصى الضغط على إسرائيل للانسحاب، ولكن يجب

عليها (أي على أمريكا) إعداد الرأي العام الأمريكي، وإعطاء الوضع السياسي في إسرائيل الوقت لينضج[1].

«الخلاف» الأمريكي-الإسرائيلي لا يقتضي براءة المصالح الأمريكية



هذا الحديث عندما يقال في الغرف المغلقة، ويُدعم بالوعود العلنية المتكررة والمتعلقة بحل سلمي ما مثل قرارات الأمم المتحدة أو حل الدولتين، وبشكوى السياسي الأمريكي أحياناً من التعنت الصهيوني، وهي شكوى عبر عنها كيسنجر نفسه أكثر من مرة سنة ١٩٧٥ لوزير الخارجية البريطاني جيمس كالاهان[2]، بالإضافة إلى شكواه من فرط الدلال الصهيوني الذي يغضب المتطرفين من ميول التسوية الأمريكية التي عَرضت على الزعماء العرب منذ السبعينيات نفس البرنامج الحالي الذي كان يتطلب التمهيد آنذاك وهو: اعتراف العرب بالكيان الصهيوني لكي يصبح دولة ودودة صغيرة ليس لها حقوق الطلب بلا حدود، مقابل الاعتراف بالهوية الفلسطينية في دولة يُخَيَّر الفلسطينيون بين البقاء حيث هم في الشتات أو العودة إليها، وهو عرض أثار غضب الصهاينة منذ ذلك الوقت لأنه يجعلهم يتراجعون، كما أنهم يريدون أن يكونوا الأصدقاء الوحيدين لواشنطن في المشرق، وأمريكا تريد «أصدقاء» آخرين.

والوصول إلى هذا الوضع المتخيل سيتطلب وقتاً لتحقيق الشرطين السابقين (أي إعداد الرأي العام الأمريكي ونضوج الوضع السياسي الصهيوني)، وسيحاول الصهاينة عرقلة ذلك بإثارة الفوضى وعداوة العرب والتخلص من الساسة الذين لا يوافقونهم بمن فيهم كيسنجر نفسه[3]، إن هذا ما قاله الساسة الأمريكيون منذ البداية لمفاوضيهم العرب، وقد تم توثيق أحد الاجتماعات المبكرة التي يجدر الاطلاع على مضمونها والتي قُدمت فيها هذه العروض بالتفصيل من كيسنجر إلى القيادة العراقية (١٩٧٥) وإلى قيادات عربية أخرى، ولكن العراقيين لم يتجاوبوا مع تلك العروض كتجاوب غيرهم على ما أثبته التاريخ فيما بعد.

ومما قد يثير العجب والاستغراب شكوى الأمريكيين من هوة «الخلاف الأمريكي-الإسرائيلي»،

(١) الدكتور علي محافظة، بريطانيا والوحدة العربية ١٩٤٥-٢٠٠٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١، ص ٢٧٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٧٨.

(٣) الدكتور خير الدين حسيب، العراق من الاحتلال إلى التحرير، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٤٥٦-٤٦١ (وثيقة رقم (١) صحيفة الشرق الأوسط تنشر وثائق عن أول لقاء بين كيسنجر وسعدون حمادي في ١٩٧٥ –عدد ٢ يناير ٢٠٠٤).

والغضب الصهيوني من شخص مثل كيسنجر كانت تحليلاتنا السياسية القاصرة تختزله في خلفيته اليهودية وتصوره مجرد تابع «لإسرائيل» ومنفذ لرغباتها، وكأننا نفترض براءة المصالح الأمريكية المستقلة عن مصالح ربيبتها التي تسبب «الأضرار» لها كما حاول كيسنجر إيهام الزعامات العربية[٤] (فهل تقدم الولايات المتحدة الدعم المالي والعسكري (١١٥ مليار دولار حتى سنة ٢٠١٢) والسياسي أيضا[٥]، غير المحدود وغير المسبوق والذي لا مثيل له في سياستها ولا سياسة غيرها، لمجرد تعذيب نفسها «بالأضرار» التي يسببها الصهاينة لها؟)[٦].

«واقعية» المفاوض العربي و«صداقاته» وانتظاره تحقق الشرطين الأمريكيين هي سر استسلامه المطلق



ويشعر المفاوض العربي بقبول الأمريكيين له وذلك نتيجة ذلك «الانقسام» بين الصهاينة والأمريكيين، لاسيما عندما تؤيد الولايات المتحدة قراراً في الأمم المتحدة ضد الصهاينة، وهو ما سأوضحه فيما يأتي، ذلك أن مفاوضنا العربي رضي منذ البداية من باب «الواقعية» و«العقلانية» و«السلمية» بالتنازل عن حقوقه الطبيعية والاحتكام فيها إلى متطلبات المصالح الأمريكية التي وجدها «منقذاً» من العدو الصهيوني، وذلك تحت اسم المجتمع الدولي الذي يسيطر الأعداء في الحقيقة على قراراته، ورضي كذلك بالمكان الأدنى في المعادلة المطروحة والتي جعلت حقوقه المتبقية مرهونة برأي عام في الولايات المتحدة والكيان الصهيوني دون أي وزن للرأي العام الفلسطيني والعربي والإسلامي، وهو مفاوض تؤثر فيه العلاقات الشخصية أكثر من غيره، (أدت «صداقة» الرئيس أنور السادات بالرئيس الأمريكي جيمي كارتر دوراً حاسماً في التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد ١٩٧٨[٧] ومعاهدة السلام ١٩٧٩ رغم الإجحاف بموقف مصر الأصلي الذي كان يطالب بالانسحاب الكامل

---

(٤) نفس المرجع، ص ٤٥٧.

(٥) عن الدعم المالي والعسكري:

-جيريمي م. شارب، المساعدات الخارجية الأميركية لإسرائيل ١٢ آذار/ مارس ٢٠١٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠١٢، ترجمة: نسرين ناضر.

-بول فندلي، الخداع: جديد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية بعد كتاب «من يجرؤ على الكلام»، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، أشرف على الترجمة: الدكتور محمد يوسف زايد، ص ١٣١-١٣٦ و ٢٧٨-٢٧٩.

وعن الدعم السياسي الأمريكي للكيان الصهيوني بالفيتو في مجلس الأمن:

-بول فندلي، ص ٢٢٥-٢٢٩.

(٦) عن الدور الوظيفي للكيان الصهيوني في السياسة الأمريكية يمكن مراجعة:

عبد الوهاب المسيري، الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، سبتمبر ٢٠٠٢، ص ٥٠٣-٥١٩.

الدكتور نظام بركات، مراكز القوى ونموذج صنع القرار السياسي في إسرائيل ١٩٦٣-١٩٨٣، دار الجليل للنشر، عمّان، ص ١٤٩-١٥١.

(٧) محمد إبراهيم كامل (وزير خارجية مصر الأسبق)، السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ص ٤٤٨ و ٥٦٠ و ٥٧٩-٥٨٤.

وليس الجزئي، وضمن حل شامل وليس منفرداً، هذا حسبما صرح الرئيس السادات في خطابه بالكنيست[٨])، المهم أن هذه العلاقات الشخصية التي تتجاوز قوانين الدبلوماسية والحقوق السياسية تجعل المفاوض العربي يشعر «بصدق» الراعي الأمريكي في محاولته «اجتياز هذه العقبات» ويشعر أن السياسي الأمريكي «إلى جانبه»، أما المفاوض الصهيوني فهو يقبل أيضاً هذه المعادلة لأنها منحته الجانب الموضوعي أكثر من الذاتي الذي تُرك للعرب وهو أمر لا يكلفه عناء مواجهة الرأي العام في دولته ويراهن، وفقاً لموقفه الشخصي، على تغير هذا الرأي العام نحو اليسار إن كان هو يسارياً أو باتجاهه نحو اليمين إن كان هو يمينياً ، في ظل إجماع صهيوني لا يتخطى الخطوط الحمر[٩] ومن ثم فلا خطر منه مهما تأرجح بين اليمين واليسار ، المهم هو أن المعادلة تمنح السياسي الصهيوني استقرار الواقع وعدم لزوم المواجهة ضد شعبه الذي على الطرف العربي انتظار رضاه وترقب ميوله، وفي النهاية يكون العبء على المفاوض العربي الذي لا قيمة لرأيه العام في المعادلة الأمريكية وذلك تبعاً للضعف والفرقة والشرذمة والتبعية في البلاد العربية.

«الوسيط» الأمريكي تمكن من الحصول على رضا الطرفين المفاوضين



ويظهر الراعي الأمريكي أمام الطرفين بشكل مقبول، فهو «صديق» أمام العربي، صاحب الاهتمامات «الذاتية» أي المتعلقة بالعلاقات الخاصة بينه وبين الأمريكيين، فالأمريكي يريد الخير ولكنه «عاجز» عن تحقيقه، وهو أمام الصهيوني، المهتم بالواقع العام أكثر من العلاقات الشخصية، قابل بالواقع الصهيوني يميناً كان أم يساراً ولا يحمله أي تبعة لتغيير هذا الواقع إلا برضا مجموع الصهاينة في أمريكا قبل الكيان الصهيوني نفسه، وهو ما يسبغ الألفة الأعمق بين الطرفين نتيجة للمشتركات الجامعة بين المجتمعين وإن كانت ألفة في غير اتجاه رغبات السياسيين أحياناً.

-د. جيرمي سولت، تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، دار النفائس، دمشق، ٢٠١١، ترجمة: د. نبيل صبحي الطويل، ص ٣٠٨.

(٨) هنري حاماتي، دولة السادات الفلسطينية (ملف القبس-١)، دار القبس، الكويت، ١٩ نوفمبر ١٩٧٩ (الذكرى الثانية لزيارة الرئيس المصري للقدس المحتلة)، ص ٥٤-٥٩.

-محمد إبراهيم كامل، ص ٥٩١.

(٩) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩، ج ٧ ص ١٩-٢٠.

العدوانية الصهيونية بين «صبر» المفاوض وثورة الشعب

ولكن هذه المعادلة إن أرضت المفاوض العربي الذي ينتظر بصبر وأناة فريدين تَحقُّق الشرطين اللذين ذكرهما كيسنجر، فإنها لا ترضي القاعدة الشعبية العربية الإسلامية التي تراقب هذا الضعف الذي لا يكف أثناء انتظاره عن القبول بكل ما يثيره الصهيوني من اعتداءات بسبب حسابات برامجه السياسية أو الداخلية التي لا تقيم السياسة الأمريكية أهمية لنظائرها عند الجانب العربي، كذلك لا يكف المفاوض العربي، حتى في مواجهة هذه الاعتداءات والحروب، عن محاولة تجميل صورته في عيون العالم بتقديم التنازلات المجانية لنيل الرضا الغربي(١٠) وللتعجيل بحصول الرضا الشعبي الأمريكي والصهيوني(١١)، كما حدث في سنة ١٩٨٨ عندما لبت القيادة الفلسطينية شروط الحوار الأمريكي وأرسلت لشعب الكيان الصهيوني التهاني في الأعياد اليهودية وانتظرت المقابل من الانتخابات الصهيونية، ولكن الطرف الصهيوني الأقوى لا يرد على تلك المبادرات والتنازلات بأفضل منها أو بمثلها على الأقل، بل يتجه يميناً كلما شعر بالأمان(١٢)ولا يمنح أكثر من صدقات(١٣)، ويزيد في عنجهيته وعدوانه كعادة النفس البشرية العدوانية أمام أي ضعف أو فراغ (شن حرب لبنان ١٩٨٢ بعد توقيع معاهدة السلام مع مصر ١٩٧٩ وتسارع الاستيطان بعد توقيع اتفاقية أوسلو ١٩٩٣)(١٤)، مما يفجر الأوضاع في المنطقة أحياناً وهو أمر لا يتأخر الراعي الأمريكي عن استغلاله ومحاولة تسخيره والتجارة بدمائه لتحقيق حله المنشود الذي يسود فيه استقرار مصالحه ورؤيته دون «تعكير»، ومع أن الحروب والمقاومة تؤلم الصهاينة بخسائر جمة، فإن هيمنة القوة الأمريكية وتبعية العمالة العربية وقلة إمكانات المقاومين كفيلة بعدم تحقيق الحد الأقصى من أهداف العرب والمسلمين، ولكن بموازين جهاز التحكم الذي تمسك أمريكا بأدواته السابقة (قوتها وتبعية عملائها وقلة إمكانات أعدائها) ربما «تؤدب» المقاومة طفل أمريكا الصهيوني المشاكس وتجعل ساسته ورأيه العام يهرول موافقاً على الحل السياسي الأمريكي.

الخلاف عائلي بين الولايات المتحدة والصهاينة، وأمريكا لا تقبل إلا بحله ودياً

ولا يظن أحد أن ساسة الولايات المتحدة يرغبون في تهذيب صهاينة الكيان كما ادعى كيسنجر، بل إنهم يريدون رسم مستقبل أكثر ازدهاراً لهم يمكّن الكيان، بالسلام وحده، من الهيمنة الاقتصادية على

(١٠) محمد إبراهيم كامل، ص ٥٧٩.

(١١) د. عبد الوهاب المسيري، الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح، دار الحمراء، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٨٩.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٣٣-١٣٤.

-الدكتور عبد الوهاب المسيري، من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية (أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني)، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٢٥.

(١٣) د. عبد الوهاب المسيري، ٢٠٠٤، ص ٨٨-٨٩.

(١٤) نعوم تشومسكي، قوى وآفاق: تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام والاجتماعي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٨، ترجمة: ياسين الحاج صالح، ص ٣٦-٣٨.



المنطقة كلها[١٥]، وهذا ما لا يدركه منظور الساسة الصهاينة الذين يطمعون في كل شيء: الاحتلال العسكري والاستيطان البشري والهيمنة الاقتصادية، وعندما يعمل الأمريكي على لجمهم فإن ذلك في منظوره الأوسع، لصالحهم، ولكنه في العلن لا يجرؤ على قول ذلك أو على انتقاد دلال الصهاينة بل يحتفظ بهذه الرؤية في غرفه المغلقة (كما حدث مع وزير الخارجية الأمريكي جون كيري في تسجيله الذي انتشر عن نقده الحاد خلف الكواليس لأداء الجيش الصهيوني في العدوان على غزة سنة ٢٠١٤)[١٦] مع استمرار الدعم والتأييد العلني، فالأمريكي يكتفي بإصدار بعض القرارات «الدولية» (صوتت الولايات المتحدة إلى جانب عشرات القرارات التي عبر فيها مجلس الأمن عن «الإدانة» و «الاستنكار» و «الشجب» و«الأسف» و«القلق»، «بشدة» أحياناً، بسبب عدوان صهيوني لاسيما على الدول المجاورة غير فلسطين، بالإضافة إلى «التوصية» و «الحث» و «الطلب» من الكيان الانسحاب من دولة مجاورة أو وقف عدوان عليها أو وقف الاستيطان)[١٧] تاركًا للصهاينة تنفيذها دون ضغط مباشر منه أي كلما شعروا هم «بكامل إرادتهم» بضرورة ذلك تحت وطأة ضغوط الواقع المحيط (الانسحاب من سيناء بعد حرب رمضان ١٩٧٣ واتفاقيات كامب ديفيد ١٩٧٨ ومعاهدة السلام مع مصر ١٩٧٩ ثم الانسحاب من جنوب لبنان ٢٠٠٠ «بعد ٢٢ سنة من صدور القرار ٤٢٥» ثم الانسحاب من غزة ٢٠٠٥ «بعد ٣٨ سنة من صدور القرار ٢٤٢» دون التوقف عن الاعتداء عليها)، هذا مع استخدام أكبر لحق النقض الجائر ضد ٤٣ قراراً يدين الكيان الصهيوني وإعاقة صدور ٥٧ قراراً (حتى نهاية ٢٠١٣) لصالح الحقوق الفلسطينية[١٨]، المتروكة للمفاوضات و«نضج الأوضاع» سيء الذكر، فالمعادلة الأمريكية منذ البداية هي مسايرة الرأي العام الأمريكي الذي يحتوي تطرفاً إنجيلياً يمينياً أكبر وأكثر من الرأي العام الصهيوني بل واليهودي الأمريكي، فهناك عشرات الملايين ممن لا يصغون حتى إلى الإسرائيليين أنفسهم ويزايدون على تطرف المجتمع الصهيوني بدعوى أنه لا يهمهم ما يقوله الإسرائيلي بل ما يقوله الرب في الكتاب المقدس وهو ضد أية عملية تسوية بين اليهود وأعدائهم حتى لو رضي اليهود بها فأرض فلسطين لليهود وحدهم وعلى غيرهم الرحيل عنها تمهيداً لعودة المسيح والعصر الألفي السعيد الذي سيقضي على اليهود بالموت والتنصر ، أما الحروب التي تسبق ذلك

---

(١٥) جورجي كنعان، مملكة الصعاليك، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٣.

(١٦) http://www.alwakeelnews.com/print.php?id=104860 - https://www.youtube.com/watch?v=dbLPYl6YWfA

(١٧) بول فندلي، ص ٢١٨-٢٢٥.

(١٨) موقع روسيا اليوم: أخبار العالم العربي: الفيتو الأمريكي في صراع العرب مع إسرائيل (٢٠١٣/٩/٢٦)

وتزعج ذوي المشاعر الإنسانية فهي عند الإنجيليين جزء طبيعي وإن كان مؤسفاً من عملية الخلاص، ويصرح هؤلاء بأنهم صهاينة أكثر من الإسرائيليين أنفسهم[١٩].

المقاومة بين عظمة أهدافها التي تعجز عن تحقيقها، وقلة إمكاناتها التي تدعم الالتفاف على إنجازاتها



وتحاول السياسة الأمريكية دائماً الالتفاف على أي إنجاز يقوم به الجندي أو المقاوم العربي أو المسلم، ليصب في صالحها وذلك بعدما يقوم أي انتصار لنا بتعديل موازين القوى لغير صالح العنجهية الصهيونية، والهدف من هذا الالتفاف هو التأثير على السياسة الصهيونية التي تعتمد على رأي صهيوني عام لا تغيره سوى القوة التي لا يفهم غيرها ولا تكسر أنفه إلا الهزيمة الماحقة، بالإضافة إلى التأثير على رأي غربي عام موزع بين أفكار صراع البقاء، والإنسانية، وهذا بدلاً من أن تصب المقاومة في صالح أبناء المنطقة العرب والمسلمين بتحرير بلادهم واستعادة حقوقهم وهو ما يقف المجتمع «الدولي» بأكمله ضده مدعوماً بالسياسة العربية الرسمية بأكملها.

الخلاصة

وخلاصة الأمر أن معادلة الحل الأمريكي تنحاز إلى المفاوض الصهيوني موضوعياً، وتمنح المفاوض العربي جانباً ذاتياً، تقر للجانب الصهيوني بالواقع الموضوعي الذي يفصّله الصهيوني على مقاسه بدعم من الرأي العام المتصهين في أمريكا، ومن ثم يطمئن استقراره، وهو أمر لا يحمل الصهاينة أية أعباء في ظل المزايدة الأمريكية العامة على المواقف الصهيونية، وتطلب هذه المعادلة من الجانب العربي انتظار الفرج بدعم نفسي يطمئنه «لصداقة» المفاوض الأمريكي و«إخلاصه» بالرغم من «عجزه»، وهذا هو السر في «طمأنينة» المفاوض العربي وثقته بالنهاية السعيدة، وصبره الشديد على شح النتائج العملية لأنه رضي منذ البداية أن يكون واقع العدو هو الحكم وتأسس وجود سلطته السياسي وبرنامجه الاقتصادي وموارده المالية على هذا الافتراض

(١٩) الدكتور يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي - الصهيوني (دراسة في الحركة المسيحية الأصولية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٠١ و ١٣٠ و ١٦٧ و ١٧٠.

-جورجي كنعان، الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي (الجزء الأول: الدعوة والدعاة)، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٦٩-١٦٦.

المطاط جداً، ولم يحدث أي خرق لأن الوعد مؤجل ومرتهن من البداية ولهذا تتكرر في المفاوضات عبارة «ليس هناك مواعيد مقدسة»، وهو أمر «يتفهمه» المفاوض جيداً ويجعل من الانتظار أمله الوحيد وليس له من ورقة ضغط تساعده أثناء هذا الانتظار سوى وسيلة المفاوضات التي بلا دعامة من القوة تسندها كما كان مفاوضو حركات التحرر يجلسون على الطاولة والمقاتلون يكافحون في الميدان في نفس الوقت، أما عندنا فليس لدينا سوى المفاوضات ثم المفاوضات ثم المفاوضات.

تناقض الشخصية التفاوضية

الرئيس محمود عباس شاكياً إلى الدورة غير العادية للمجلس الوزاري في الجامعة العربية (٢٠١٦/٥/٢٨):

«إسرائيل تعتدي وتقتل وتستبيح وتشرد وتستوطن وتقتلع وتزيل وتصادر وتهدم وتعتقل ....إلخ ، ونحن ملتزمون ولكنها ترفض الالتزام ...»

ألم يسأله أحد من مندوبي التجزئة: إذا كنت تشتكي من اعتداءاتها فعلام تنسق معها وتقف إلى جانبها ضد من يقاوم هذه المظالم من شعبك الذي تريد توحيد صفه بلا سلاح مقاومة يدرأ عنه ما تشتكي أنت منه؟ وهل ستتحقق أحلام الدولة والقدس والعودة والمياه واللاجئين بالرضا بتحكيم أمريكا وجعل فلسطين مزرعة لحلف الأطلسي يحتلها بدلاً من الاحتلال الإسرائيلي؟



مقاومة الشعوب ٣

د. عمرو عادل

هذا المقال الثالث الذي نختتم به توضيح المرحلة الأولى من مراحل بناء المقاومة الشعبية، وكنا قد تحدثنا في المقال الأول عن المراحل الثلاث لبناء منظومة المقاومة الشعبية، وكانت تجهيز الأرض والمجتمع للمقاومة والمرحلة الثانية هي المظاهر العملية للمقاومة الشعبية، ثم المرحلة الأخيرة وهي الحسم الثوري. ثم تناول مقومات المرحلة الأولى وكانت القيادة والجماهير والأرض والعدو.

وتناول المقال الثاني علاقة الجماهير والقيادة وكيفية بناء قوى شعبية آمنة إلى حد ما مع توضيح لكيفية تدفق المعلومات بين القيادة والجماهير بطريقة آمنه. وأوضح المقال أن الهدف الرئيسي من هذه الإجراءات هو تكوين قيادات ميدانية وهي العنصر الأهم في إنجاح أي عمل ثوري وقيادة الجماهير.

ننهي في هذا المقال المرحلة الأولى بالحديث عن الأرض والعدو، ولا يمكن تخيل معركة ما مهما كانت طبيعتها دون إدراك مجال هذه المعركة، وبطبيعة الحال فهذا المجال يتكون من العدو والأرض.

يبدو أننا لن نبذل الكثير من الجهد في تعريف العدو؛ فقد أوضحت السنوات القليلة السابقة أن العدو مركزه هي مؤسسة ما تسمى القوات المسلحة التي تمعن في إذلال وتدمير مصر وشعبها وهي أقرب إلى مؤسسات الاحتلال، وما تقوم به هذه المؤسسة والمؤسسات التابعة لها من إجراءات تشير أنها في معركة كبيرة مع الشعب،

ومن الواضح أيضًا أن قطاعًا واسعًا من الشعب المصري قد خرج أو على وشك الخروج من السيطرة وبداية حالة تمرد واسعة، وقد ذكر ديفيد جواردیولا في كتابه[١] عدة أمور تقوم بها أنظمة الاحتلال لمكافحة التمرد وجميعها قامت به السلطة المصرية أو تقوم به الآن:

- الحصول على تأييد الأقليات السياسية والأيديولوجية.
- الحصول على التأييد الشعبي بكل الطرق.
- تركيز العمل ضد المقاومة في نقاط محددة لعدم قدرته على ضبط الأمور في كافة النقاط في وقت واحد.
- إدراكه بأن التأييد الشعبي ليس مطلقًا ودائمًا.

كما يعتمد العدو على عزل قوته المسلحة عن المجتمع، سواء بشكل مادي بجعلها منعزلة، أو بشكل معنوي بإضفاء هالة من القدسية أو الترهيب من التعامل أو الاقتراب منها، وفي مرحلة الإعداد والتجهيز يجب على القوى الشعبية المقاوِمة تفتيت هذه العناصر الأربعة مع عدة إجراءات أخرى لحصار العدو حتى تفقد القوة المسلحة تأثيرها بأكبر قدر ممكن، ولا نحتاج القول إن هذه المرحلة تعتمد على جمع المعلومات وضبط مجال العمل الثوري المقبل، ولا تحتوي على مواجهات أو فعل يمكن تتبعه، حيث إن ذلك يحرق كامل نظام المقاومة. وبالتالي يجب على القوى الشعبية تحديد الآليات التي يجب عليه القيام بها أثناء هذه المرحلة وهي كما أراها:

تحديد الأقلية المؤيدة للنظام، والتفكير والتخطيط في الوسائل والأدوات الواجب اتباعها لحصارها في المراحل الثورية التالية.

تفتيت العلاقة بين النظام الحاكم والقوى الشعبية بكل الوسائل المتاحة؛ حيث إن التجارب أثبتت الصعوبة الشديدة لبناء منظومة مقاومة شعبية في وجود عداء جماهيري، ويتحول المقاوم إلى قاطع طريق أو مجرم في نظر المجتمع[٢].

توسيع دائرة العمل المقاوم على مساحات واسعة وعدم تركيزها في نقاط محددة، وهذه نقطة سنتناولها في الحديث عن المرحلة الثانية للمقاومة؛ ولكن في المرحلة التحضيرية يجب الإيمان بضرورة نشر فكرة المقاومة في كل مكان وعلى مدى جغرافي واسع، لزيادة احتمالات تواجدها كما تحدثنا في المقال السابق، لأن ذلك مقدمة لما سيحدث في المرحلة الثانية.

نشر أفكار وأسباب العمل المقاوم بين المجتمع وتثويره دائمًا بأشكال ورسائل متنوعة، طبقًا لطبيعته واحتياجاته، وذلك على الأقل لتحييد أكبر قدر ممكن من العداء لفكرة المقاومة والمقاومين، أو تحفيز الشعب للمشاركة في بناء منظومة المقاومة.

---

(١) Counter Insurgency warfare Theory and Practice «مكافحة حروب التمرد النظرية والممارسة»

(٢) حرب المستضعفين روبرت تايلر ص ١٢

أما فيما يتعلق بالقوة المسلحة للجيش وهي المركز الرئيسي الذي يعتمد عليه النظام الاستبدادي أو الاحتلال في استعادة السيطرة عند انفلات الأمر؛ فإن الهدف الرئيسي هو إخراجها من معادلة الصراع، فكما يقول صن تشو في فن الحرب: «إخضاع قوة الآخر الحربية بلا معركة هي البراعة القصوى [٣]."وهذه المقدرة على الإخضاع تعتمد وتتناسب طرديًا مع حجم المعلومات التي تمتلكها المقاومة الشعبية عن العدو.

لذلك فمعرفة التفاصيل كل التفاصيل عن كل الوحدات العسكرية أحد أهم النقاط الرئيسية في التجهيز للمراحل التالية، وكما أن الطبقة الحاكمة في مصر تتعمد عزل نفسها عن باقي المجتمع؛ فإنها تستخدم التجنيد الإجباري من الشعب لتحقيق مصالح خاصة بها، وبالتالي فإن هناك فرصة ذهبية من القوى الشعبية لدخول الوحدات كافة الوحدات ومعرفة كل ما يتعلق بها وكل المعلومات المهمة التي تسهل عزل تلك الوحدات والسيطرة عليها لاحقًا، عند انفلات الأمور وسيطرة المقاومة على الشارع.



يقول تشي جيفارا:
"أكدت الثورة الكوبية وغيرها من ثورات أمريكا اللاتينية أن القوى الشعبية تستطيع الانتصار على الجيوش النظامية، كما لا ينبغي الانتظار دوما حتى تتجمع كل الظروف للقيام بثورة؛ إذ يمكن للبؤرة الثورية أن تفجر في مثل هذه الظروف"[٤].

ولذلك وجب على المؤمنين بالثورة والمتواجدين داخل المجتمع أن يحصلوا ويجمعوا كل المعلومات اللازمة عن العدو، ومن الميزات الكبرى أنه حولنا في كل مكان. وهذا لأن من المتوقع أن تتفجر الثورة في أي وقت فمن الضروري أن يكونوا مستعدين.

والسلطة فقط ليست في الوحدات العسكرية فهي خط الدفاع الأخير، ومعرفة كافة التفاصيل عن كل مواقع ممارسة السلطة، بداية من بيت عمدة أصغر قرية حتى قصر الاتحادية، هو من الأمور الحاسمة، وكلما زادت المعلومات بكل تفاصيلها عن كل ما يتعلق بمؤسسات إدارة السلطة، كلما قل حجم التضحيات وزادت سرعة انهيار النظام دون خسائر كبيرة.

(٣) فن الحرب ص ٥٥

(٤) تشي جيفارا مقالات العسكرية ص ٣٥

الخلاصة أن العدو لابد أن يكون واضحًا وضوحًا تامًّا بأكبر قدر ممكن من التفاصيل، والحصول عليها مسؤولية من له فرصة تمكنه من ذلك؛ سواء عن طريق التجنيد بالوحدات العسكرية بكافة مستوياتها، أو العمل داخل المؤسسات أو التعامل مع الهيئات والمؤسسات السلطوية، فزيادة ووضوح المعلومات تسهل عمليات التخطيط والتنفيذ للسيطرة على المؤسسات حين يفقد العسكر السيطرة.

نأتي للنقطة الأخيرة وهي الأرض، والحقيقة أن فكرة السيطرة على الأرض من رجال المقاومة هدفها حماية الشعب، فالهدف الرئيسي للجيوش من الوجود في الشوارع هي السيطرة على الجماهير ومنع انفلاتها بصناعة حالة من الفزع والرهبة من الآليات العسكرية، وكما قلنا إن الجيوش مهما كانت كبيرة وتمتلك من الآليات والأفراد؛ فإنها لا تستطيع التواجد في كل مكان ولكنها تتواجد في مناطق معينة لتبدو وكأنها تسيطر على كل شيء وهذا وهم كبير تحاول بثه في الجماهير.



ولذا تحاول القوى العسكرية والآليات التواجد عند المفاصل الرئيسية للطرق والمحاور ومداخل المدن والمراكز وبعض المؤسسات الاستراتيجية، لذلك فالسيطرة على الأرض من الجماهير هي أحد النقاط المفصلية أثناء المد الثوري لمنع المؤسسة العسكرية من السيطرة على الجماهير.

نأتي لنقطة هامة ألا وهي ادعاء البعض بعدم قدرة الشعوب على فعل ذلك وأن ذلك يحتاج تنظيمات قوية، وهذا أحد الأخطاء -إن كنا حسني النية- من مرددي هذا القول؛ فإن التاريخ والتجارب الكبرى في المقاومة تثبت قدرة الشعوب مهما كانت محدودة الإمكانات على الانتصار، لا ندعي عدم أهمية التنظيمات ولكن الرفض لاحتكارها القدرة على المقاومة، ولذلك فالخلل دائمًا يكون في أسلوب تفكير القيادة أو في التسرع في مراحل المقاومة أو الخيانات من داخل دوائر صناعة القرار، ومن الواضح أن كل هذه المشاكل تكون داخل دائرة القيادة وليست داخل دائرة الجماهير. وكل الجماهير بكل طبقاتها المطحونة وبكل تخصصاتها الفنية أو الفكرية يمكنها المشاركة في بناء منظومة المقاومة.

إن الحديث الحالي في هذه المقالات هو لكل الشعب، ويحاول وضع أطر شديدة الاتساع والعمومية ولا تفرض نمطًا ما على أحد، ولكنها تحدد مسارات رئيسية هامة في بناء قوى حقيقية شعبية لها قيادات منتمية لها، ودعونا نؤكد أن الشعب والشعب فقط هو القادر على التغيير وما نفعله هو محاولة توضيح لا أكثر لحقائق ربما تكون معروفة وموثقة، وكما قال لينين في كتابه ما العمل: « لا خير في جموع صامتة غير واعية ولا خير في حركة لا تأتي من أسفل »[٥]. وبالتالي فإن انتظار الشعب لأي كيان أو مجموعة أن تتحرك لتنقذه من الاستبداد أو الاحتلال هو وهم كبير، فالقيادة تتكون من الشعب عندما يبدأ في العمل كما أوضحنا في المقال السابق.

بالتأكيد ما نعنيه هنا هو كامل الشعب ولكن نعني القوة الفاعلة التي تنتظر التغيير، فعلى كل هذه القوى التحرك من الآن وعندما تبدأ الحركة سيبدأ التقدم فى كل مراحل الثورة والمقاومة إلا أن الحركة لابد أن تكون في المسار الصحيح.

(٥) ما العمل ص ٦٥

بائع الملوك

يسرا جلال

- ابتلعت مياه النيل الحصاة الصغيرة التي رماها (عبد الرحيم) محدثة دوائر ما لبثت أن اختفت، عاد ليلتقط حصاة ثانية وهم برميها، ثم تراجع ليقول لصاحبه (محمد): «يبدو أن هذا الشيخ القادم من دمشق سيورطنا في أزمة جديدة! لا أفهم كيف لشيخ تجاوز الستين أن يكون سببًا لهذه البلبلة؟! أبعد أن استقبله الصالح أيوب هذا الاستقبال الحافل وأوكل له القضاء يثير مثل تلك المسائل؟! ألا يستحي من الملك الصالح؟ إنه رجل صعب الإرضاء وسيرهق السلطة».

- قاطعه (محمد): «كلا يا (عبد الرحيم) .. إنه (العز) .. كان يسعه الصمت على خيانة الصالح إسماعيل عندما كان في دمشق وهو الشيخ العجوز ويعيش ما بقي من عمره في مدينته ويُدرس في زاوية الغزالي بالمسجد الأموي كما اعتاد، ولكنه أبى إلا أن يجهر بالحق؛ فأعزه الله بالحق ونصر به دينه وأوليائه فسعى الملوك والسلاطين في إرضائه والنزول على رغباته».

- ألم تسمع بما كتب الشيخ (العز بن عبدالسلام) للملك الأشرف موسى رحمه الله حين وقع خلاف بينهما فكتب له: «ينبغي لكل عالم إذا أُذل الحق وأخمل الصواب، أن يبذل جهده في نصرهما وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما»؟[1].

- تبسم (عبد الرحيم) قائلًا: «أراك حفظت كلامه!». فرد عليه (محمد): «ولَم لا! إن هذه

(١) العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك، الزحيلي، ص١٦٨، دار القلم- دمشق.

الكلمات لحقيق أن تكتب بماء الذهب؛ لأنها خرجت من قلب صادق ووافقت جوارحه سطور كتبه فعمل بما علم. أذكر مما قاله في كتابه للأشرف موسى: «المخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(٢).

- «ولكن يا محمد ليس كل الناس يحسن هذا، ليس كل الناس يملك قلبًا جسورًا».

- «نعم يا أخي ولذا ذكر الشيخ أن «من آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضا الله بما يسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

- صاح (عبد الرحيم) متعجبًا: «كل هذا حفظته عن الشيخ؟! أراك أصبحت من تلاميذه!».



- رد محمد: «ليتني من تلاميذه، ولكنك تعلم عملي في سوق السلاح بعيدًا عن جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ولكني أداوم على صلاة الجمعة عنده .. تبهرني جرأته وإخلاصه، إن لكلامه سلطانًا على النفوس والقلوب، وله هيبة على منبره رغم أنه ما دق بسيف على منبر ولا لبس السواد».

- «عجبًا! ألا يدق السيف على المنبر؟»

- «كلا يا (عبد الرحيم) فقد سبق له أن أفتى ببدعية هذه العادة، كما أفتى ببطلان صلاة الرغائب وصلاة النصف من شعبان لعدم ثبوت الدليل عليهما».

- ضرب (عبد الرحيم) يديه بعضهما ببعض ليزيل ما علق بهما من غبار ثم قال: «طالما أنه جريء في الحق كما تقول، لم هرب إذن من مواجهة الصالح إسماعيل وترك دمشق إلى مصر؟».

- هز (محمد) رأسه نافيًا «كلا، سأروي لك .. بعد أن تصالح الشيخ مع الأشرف موسى رحمه الله استنصح الأشرف الشيخ في مرضه الذي مات فيه، وكما تعلم فإن الأشرف كان يستعد لقتال أخيه الكامل سلطان مصر، فنصحه الشيخ بترك قتال أخيه وذكره بأن قتال التتر أولى وقال له: «تترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء الإسلام وتضربه صوب أخيك»؟(٣)

- «إي والله .. صدق .. لم يكن للناس حديث في الأسواق والمجالس وقتها سوى الحديث عن عزم صاحب

(٢) السابق، ص١٦٨.

(٣) سلطان العلماء وبائع الأمراء، الصلابي، ص٥، المكتبة العصرية- بيروت.

دمشق قتال أخيه صاحب مصر .. حسنًا فعل الشيخ».

- «وحسنًا فعل السلطان بالاستجابة لنصح الشيخ»

- «وماذا كان خبره مع الصالح إسماعيل؟ »

- أجاب محمد: «يبدو أن الصالح إسماعيل لم يرق له الود الذي حل بين أخويه، كما أنه لم ينفذ ما أوكله له أخوه الأشرف موسى من الأخذ بنصيحة الشيخ في إبطال المكوس والالتزام بالشرع، وطوال الأعوام الأربعة التي تلت وفاة الأشرف موسى وكانت السلطنة فيها للصالح إسماعيل لم يبد أنه على وفاق مع الشيخ ولكنه لم يجرؤ على عزله من الخطابة في الجامع الأموي بدمشق. أذكر حين استفتى الملك الكامل الشيخ عن غرام أخيه إسماعيل برمي البندق فأفتاه الشيخ بحرمة ذلك مستدلًا بنهي الرسول -صلى الله عليه وسلم-عنه.

- قاطعه عبد الرحيم ضاحكًا: «أنا أيضًا أحب رمي البندق».

- «بندق؟ أتملك البندق؟ حسبنا رمي الحصى في مياه النيل».

- علا صوت ضحكات الصديقين وعاد عبد الرحيم ليسأل: «إذن كان البندق السبب في الخلاف بينهما؟»

- نفى محمد ذلك مشيحًا بيديه: «ليس السبب وحده ولكنه كان لبنة في جدار الجفوة بينهما. عندما انتهت السلطنة إلى (نجم الدين أيوب) بعد الخلاف الذي أعقب وفاة والده (الكامل)، عزم (نجم الدين أيوب) على ضم الشام إلى مصر وهنا سرى الرعب في أوصال الصالح إسماعيل، تملكه الخوف على كرسيه حتى أنه زهد الطعام والشراب والمنام، وبدلًا من السعي لتسوية مع أخيه التجأ إلى أعداء الله الفرنج الصليبيين طالبًا عونهم ضد أخيه على أن يسلمهم حصون المسلمين في حيفا والشقيف وصفد .. ولَم يكتف بذلك بل إنه سمح لهم بنزول دمشق لشراء السلاح من المسلمين لقتال المسلمين في مصر. «عياذًا بالله ﴿يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾، كانت أيامًا حسومًا .. ضاقت علينا الأرض فيها بما رحبت».

- تابع محمد: «لم يكتف الصالح بأن يسر لهم المودة، بل جاهر بمودتهم .. وهنا جاء الإمام العز الذي لا يخشى في الله لومة لائم .. يجهر بالحق ويتصدى للمنكر فأفتى بحرمة بيع السلاح للفرنج .. ثم صعد (منبر الجامع الأموي الكبير وذم موالاة الأعداء وقبح الخيانة .. وشنع على السلطان وقطع الدعاء له بالخطبة)[٤] وأنهى خطبته بدعائه المأثور «اللَّهُمَّ أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويُعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك». فأصدر (الصالح) إسماعيل أوامره باعتقال الشيخ، ثم عاد فأطلق

(٤) العز بن عبدالسلام سلطان العلماء وبائع الملوك، ص١٧٦،

سراحه وألزمه بملازمة داره، ولَم يتراجع العز عن موقفه ولَم يرهبه السجان ولكنه ضاق بإلزامه بالصمت، فصوت الحق بين جنبيه يأبى إلا أن يُعلن ويجهر به فقرر الشيخ مغادرة دمشق ليجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة، مرفوع الهامة، صادعًا بالحق، راسخ العقيدة».

- «وبذلك استراح منه الصالح و...».

- «كلا والله، استمر في مطاردته ومساومته، الباطل لجلج، يعلم أنه لن يستقر أمره حتى يرضى الشيخ. وفي القدس أثناء رحلته إلى مصر أرسل له الصالح بعض أعوانه ليسترضيه، وقال لرسوله: (تتلطف به غاية التلطف، وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال؛ فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالف، فاعتقله في خيمته إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع رسول السلطان مع سلطان العلماء شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير. فقال له : يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلًا أن أقبل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، والحمدلله الذي عافاني مما ابتلاكم به)[٥]

- «فاعتقله السلطان؟».

- «أجل، وكان يفخر باعتقاله أمام أوليائه الصليبيين، فكان الشيخ في خيمة اعتقاله يقرأ القرآن، فأراد السلطان أن يؤكد ولائه للصليبيين فقال لهم (أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال السلطان: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته، لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته، فجاء القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم. فقال ملوك الفرنجة: والله لو كان هذا قسيسنا؛ لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها)».

- «أخزاه الله! وعندما حقق الله النصر للعساكر المصرية على الفرنج بالقدس نجى الله الشيخ العز وأكمل سيره إلى مصر.. أليس كذلك؟ أتظن أن رجلًا كهذا يتراجع عن موقفه من بيع الأمراء المماليك؟».

- قال محمد مشيرًا باصبعه في الهواء: «كلا والله، ولو كلفه هذا عزله من منصب القضاء في مصر؛ فالقادة والأمراء ونائب السلطان جميعهم مماليك .. أرقاء .. لم يثبت عند الشيخ أنهم أحرار وبذلك لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا نكاح».

- «أرى أنهم سيقتلونه».

- «لا أظن؛ فالمماليك رغم سطوتهم فإن للشرع عليهم سلطانًا، قد يساومونه أو يجعلون سلطانهم وسيطًا

(٥) سلطان العلماء وبائع الأمراء، ص٦٤.

لهم عند الشيخ».

- التقط عبد الرحيم حصاة ثم فركها بيديه قائلًا: «إن أمراء المماليك والعساكر مستشيطين غضبًا.. خاصة بعد أن قال لهم الشيخ (نعقد لكم مجلسًا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عرفكم بطريق شرعي)[٦] عجبًا لجرأته .. يبيع الأمراء؟!» قالها ثم سدد بحصاته نحو النهر بكل قوة .

***

- «يا عبد الرحيم! عبد الرحيم! تعال بسرعة نلحق بالشيخ».

- نفض عبد الرحيم يديه وتلاشت من وجهه ابتسامة كانت سترحب بصديقه، لولا الفزع الذي بدا في عينيه .. ليسأله: «الشيخ العز بن عبدالسلام؟ ماذا حدث».

- أجابه محمد متلهفًا: «عزل الشيخ نفسه عن القضاء وحمل أهله ومتاعه وخرج من القاهرة.. وخرج الناس وراءه». اتسعت عينا عبد الرحيم مندهشًا: «الناس في الحارات والأزقة؟! »

- «بل والنساء والصبيان.. أسرع لندرك الشيخ لن ندعه يترك مصر!».

كان موكب الشيخ مهيبًا؛ حمل أهله ومتاعه على حمار وركب حمارًا آخر، والعامة خلفه كبارًا وصغارًا .. رجالًا ونساءً. والسلطان في القلعة يشرف بعينه على القاهرة .. ينظر إلى ملكه الذي يضيع بذهاب الشيخ.. ركب السلطان ولحق بالشيخ ليسترضيه كما استرضاه من قبله الأشرف موسى والصالح إسماعيل وطلب إليه العودة للقاهرة ليوافق الشيخ مشترطًا بيع الأمراء بالمناداة عليهم.

وقف الشيخ ينادي على الأمراء واحدًا واحدًا والمسلمون حوله يزيدون السعر، والشيخ يغالي في طلب أيمانهم، حتى إذا بلغ الثمن غايته وعجز الناس عن دفعه، قام السلطان نجم الدين بنقد الثمن من ماله الخاص.

وبين العامة وقف محمد وعبد الرحيم والعجب يتملكهم وهما يريان الأمراء ذوي السلطة والشأن يعتلي أحدهم مرقاة نصبت في ساحة القلعة .. علا صوت عبد الرحيم مستفسرًا: «وما الفارق إذن؟ ألم يكن السلطان يملكهم؟»

- أجابه محمد: «لا لم يكن يملكهم لأنه اشتراهم بمال المسلمين وليس بماله الخاص، الآن هو يملكهم».

- «ثم؟»

(٦) سلطان العلماء وبائع الملوك، ص١٨٠.

- «ثم سيعتق رقابهم ليصبحوا أحرارًا يملكون أمرهم».
- «والمال الوفير هذا أين سيذهب؟».
- «سيقبضه الشيخ العز ويعيده لبيت مال المسلمين».
- «بائع الملوك .. أعز الله به الحق والشرع، وأظهر به شرائع دينه ونصر الله به المسلمين»

***

عام مر على بيع سلطان العلماء للملوك حتى نما إلى علم الشيخ ما فعله معين الدين بن شيخ الشيوخ كبير أمناء الملك وقائد جيشه؛ حيث أهان بيتًا من بيوت الله فبنى طبلخانة فوق أحد مساجد القاهرة ..

أمر الشيخ بهدم البناء وقام بنفسه وحمل معوله مع أولاده وتلاميذه وهدم البناء وأسقطه كما أسقط عدالة الوزير، متحديًا الوزير وسلطانه، ثم سارع بعزل نفسه عن القضاء حتى يبقى عزيزًا بعزة الله.



حاول محمد أن يظهر البشر لصاحبه الذي يزوره في سوق السلاح للمرة الأولى ولكن الأخبار الآتية من المشرق ألجمتهم، التتار على أبواب بغداد بعد أن حولوا بخارى وسمرقند إلى مدن أشباح أبيد سكانها.

- قطع عبد الرحيم الصمت ليسأل صاحبه: «هل ينتظرنا جميعًا المصير ذاته؟»
- رد عليه صاحبه: «يبدو ذلك، فالأمراء مشغولون بقتال بعضهم البعض».
- ثم تنهد ناظرًا نحو السماء: «اللّٰهُمَّ أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، تعز فيه وليك وتذل فيه عدوك، ويُعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك».

(يتبع)



الفـصل الأول

الحرب التقليدية (الكلاسيكية)

تمهيد

يقصد بالحرب التقليدية ذلك النوع من الحروب الذي تخوضه - بصفة أساسية - القوات النظامية لدولة أو أكثر ضد دولة أو أكثر. فهذه الحروب - عسكريا - تعتمد على أربعة عناصر هي الإستراتيجية ، والتكتيك ، والتقدم العلمي المناسب زمانا ومكانا ، ثم الخطة .كما أنها - سياسيا- تستهدف كسر إرادة العدو ، وفرض الإرادة الأخرى عليه .

الفرع الأول

عناصر الحرب التقليدية

وتنقسم هذه العناصر -كما قلنا- إلى أربعة عناصر هي :

الإستراتيجية ، والتكتيك ، والتقدم العلمي والخطة

المبحث الأول

الإستراتيجية

وقد قيل في الإستراتيجية إنها: استخدام الاشتباك كوسيلة للوصول لهدف الحرب. أو أنها: فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة. أو أنها: فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة.

أولا : المبادئ الرئيسية للإستراتيجية

١- المباداة: وأول خطوة عند المبادرة بالعمل في الاتجاه الصحيح هي: تقدير الموقف، حيث يقوم القادة بدراسة أوضاعهم وأوضاع العدو دراسة شاملة لتحديد جوانب القوة والضعف في كل من الموضعين. ثم يلي ذلك تحديد الهدف المطلوب تحقيقه إزاء هذه القوات، ثم دراسة طاقة القوات على تحقيق هذا الهدف، وبعد ذلك يقوم القادة بتهيئة قواتهم لضمان استيعابهم لهذا الهدف.

٢- المفاجأة (المباغتة): جوهر المفاجأة هو المبادرة بالعمل في الاتجاه الصحيح بطريقة تخالف توقع وتقدير العدو. وتعتبر المفاجأة أهم مبدأ من مبادئ الحرب، ويؤدي إحرازها غالبا إلى انهيار العدو معنويا. ولا تؤتي المفاجأة ثمارها إلا بتطوير الهجوم واستغلال النجاح الأولي إلى أقصى حد ممكن.



٣- الحشد: ويقصد بالحشد في الاصطلاح العسكري ضمان التفوق في النقاط الحاسمة في مسرح العمليات.

٤- خفة الحركة: وخفة الحركة تعني في المنطق العسكري أمرين: أولهما التحرك بالسرعة المطلوبة في الزمان والمكان الصحيحين، وثانيهما سهولة التحرك في أي اتجاه، أي المرونة في إجراء المناورة الاستراتيجية.

ثانيا: المبادئ الثانوية للاستراتيجية

وللإستراتيجية مبادئ أخرى يثور الجدل أحيانا حول الاعتراف بأهميتها الإستراتيجية. ومن هذه المبـادئ (البساطـة)، فكلما اتسمت الخطة بالبساطة قلت الأخطاء.

ومن المبادئ الأخرى كذلك (التعاون) فطابع الحرب التقليدية وخصوصا الحديثة منها هو التعاون بين الأسلحة المختلفة. ويتطلب تحقيق التنسيق بنجاح وصول المعلومات الصحيحة باستمرار. لابد من توافر وسائل الاتصال الكافية التي تتميز جميعها بالكفاءة والتنوع والسرية.

ومن المبادئ الأخرى للإستراتيجية كذلك (توحيد القيادة)، مادام القائد مختارا من بين أقرانه لبعد نظره، وصوابية حكمه، وسلامة بصيرته وعقله اللماح، وشخصيته الفذة؛ فالقيادة وفق هذه الميزات أفضل بكثير من مجالس الحرب التي تتألف من أنداد، يستطيع كل منهم عند اللزوم أن يحمل زميله مغبة النتائج التي غالباً ما تكون كارثة.

ويتبقى لدينا بعد ذلك من المبادئ الأخرى للإستراتيجية أربعة مبادئ على جانب كبير من الأهمية، وهذه المبادئ هي: الاقتصاد في القوة، والمحافظة على الهدف، وضمان الشئون الإدارية، وارتفاع الروح المعنوية .

المبحث الثاني

التكتيك

إحراز النصر لن يتأتى بتطبيق المبادئ الإستراتيجية وحدها، بل يجب أن يتوج التطبيق المبدع لهذه المبادئ الإستراتيجية بنجاح تكتيكي كذلك. ويقصد بالتكتيك في مجالنا هذا: القواعد التي تستخدم لتحقيق التأليف الصحيح بين النار والحركة بغرض إحراز قوة الصدم المطلوبة، وكذا الاستفادة التامة من الخصائص الفنية للسلاح المستخدم.

وسنتناول في القسمين التاليين مبادئ كل عنصر من عنصري التكتيك ، أي مبادئ النيران ومبادئ الحركة

القسم الأول: مبادئ النيران

ويعتبر استخدام النيران في المعارك التقليدية الحديثة هو الأساس، ويستثنى من ذلك حالات قليلة قد استخدم فيها السلاح الأبيض. ويتوقف النجاح التكتيكي كثيرا على التخطيط الدقيق للنيران.

القسم الثاني: مبادئ الحركة

التحركات مهما تعددت لا تخرج عن إطارين هما : التحرك للهجوم ، والتحرك للدفاع .

أولا : الهجوم : وللهجوم أشكال ثابتة ، ومعروفة ، هي : الالتفاف ، والتطويق ، والاقتحام بالمواجهة . ويتوقف اختيار الشكل المناسب منها على عوامل فنية كثيرة ، أهمها : الظروف الطبوغرافية ، ونظم دفاعات العدو ، وأسلوبه في العمل ، فضلا عن الموعد المطلوب تحقيق الهجوم فيه ليلا أم نهارا .

ثانيا : الدفاع : الدفاع لا يعني سوى الانتظار، إذا يتعين الدفاع شكلا للمعركة المرتقبة، يترقب القادة للعدو حتى يقع في الفخ المنصوب له، وهنا تجد المدافعين وقد عمدوا فورا إلى الهجوم المضاد المعد له من قبل.

أما لماذا يتعين الدفاع كأمر حتمي أحيانا؟ فدون ذلك أسباب متعددة منها: تعذر القيام بالهجوم، أو عدم ضمان نتائجه، أو كون دفاعات العدو قوية ومتفوقة بحيث لا يكون مناسبا مهاجمته إلا بعد تكبيده خسائر كبيرة في معركة دفاعية ناجحة.

هذا وللدفاع شكلان رئيسيان، دفاع ثابت ودفاع متحرك، ويتميز الأخير بوجود احتياطات تكتيكية تتولى الدخول مع العدو المقتحم في معركة تصادمية، أو تتولى القيام بالهجوم المضاد عليه في أماكن معدة له بعناية من قبل.

المبحث الثالث

التقدم العلمي

أضحى التقدم العلمي عنصرا من عناصر الحرب لا يمكن إغفاله أو التهوين من شأنه، فحينما تتمكن الدولة من اختراع سلاح جديد فإن ذلك يعطيها ميزة واضحة على أعدائها. وبالإضافة إلى ذلك ، فهناك وسائل الاتصالات والاستطلاع والمراقبة والرؤية، سواء منها اليدوية أو الالكترونية، وسواء منها ما كان في باطن الأرض أو على سطحها أو تشق طريقها في عنان السماء. وهذه الاختراعات ولاشك قد صارت ملموسة آثارها على المعارك والحروب، وصارت معروفة أهميتها في تجاوز الموانع المكانية والزمانية (المسافات الوقت) وهذا يؤكد ما قلناه من أهمية التقدم العلمي كعنصر من عناصر الحرب .

المبحث الرابع

الخطة

بديهي أن العناصر الثلاثة السابقة للحرب لا قيمة لها ما لم تتوظف في النهاية في خطة عسكرية مناسبة زمانا ومكانا. وحين يضع القائد خطته فإنه يبدأ أولا بالإجابة على الأسئلة التالية: ما هو الهدف المطلوب بالضبط؟ أفي طاقة قواتي أن تحقق هذا الهدف؟ ما هو الأسلوب المناسب لتحقيق هذا الهدف؟ ما هي أبعاد معركة المفاوضات ومتطلباتها بعد أن تنتهي المعركة العسكرية وإلى أن تنتهي الحرب؟

والإجابة على هذه الأسئلة هي المفتاح الصحيح لأي خطة عسكرية. وتخضع الإجابة على هذه الأسئلة السابقة لأسس دقيقة، نشير فيما يلي إلى طرف منها :

أولا : الهدف :

وهدف الحرب تضعه الحكومات الآن ويشترك في وضعه كل أو جل أعضائها، وسواء منهم من كان مدنيا أو عسكريا. ولا غرابة في ذلك، وقد استقر منذ زمن أن الحرب ليست إلا سياسة كلماتها الطلقات، ومفاوضاتها العمليات. وكلما كان الهدف العسكري متلائما مع النوايا السياسية كان هدفا مثاليا.

وكلما زاد اعتماد العدو على الوسائل العسكرية لخدمة معركته السياسية ضدنا، زاد بالتالي حجم الجهد العسكري المطلوب تحقيقه، والعكس صحيح تماما، ولهذا ليس أمامنا إذا كانت سياسة العدو عسكرية في أسسها وتوسعية عدوانية في أهدافها، إلا أن ننزع منه وسيلته العسكرية باعتبارها مركز الثقل في وسائله السياسية.

وأما كيف يتحقق حرمان العدو من سلاح القوة العسكرية ؟ فدون ذلك طرق متعددة :

أولاها : تدمير قوات العدو بإنزال درجة مناسبة من الخسائر بها، ثم تشتيت البقية الباقية منها إلى حيث تصبح عديمة الفاعلية والقيمة.

وثانيهما : إقناع العدو بعدم فاعلية قواته في المحافظة على أهدافه السياسية، فإذا كان العدو يعتقد مثلا أن حصونه العسكرية تحقق له الأمن والاستقرار، فإن الاستيلاء على بعض من هذه الحصون يعد هدفا مثاليا في هذه الحالة.

وأما ثالثة هذه الطرق، فتتحقق بالاكتفاء بإحراج قوات العدو، واستغلال هذا الإحراج في تليين موقفه السياسي. وتلجأ الحكومات في سبيل تحقيق ذلك إلى وسائل عدة قد يكتفي فيها بالمظاهرات العسكرية، أو المضايقات البحرية، وقد يزاد على ذلك قليلا بالاستيلاء على شريط من الأرض لا أهمية له.

ثانيا : الأسلوب :

فبعد أن يعرف القائد هدفه، ويطمئن إلى أنه داخل في استطاعة قواته، فإنه يبدأ بعد ذلك في تحديد الأسلوب المناسب لتحقيق أقصى المواءمة بين الهدف والطاقة.

ويتدخل في تحديد هذا الأسلوب ثلاثة عوامل هي: الوقت، والقدرة، وطبيعة مسرح العمليات.

ثالثا : وضع القوات في معركة المفاوضات:

فالحرب لا تنتهي بمجرد توقف العمليات العسكرية في المعارك ، وإنما الحرب تنتهي بعد فاصل المفاوضات الذي يعقب- حتما - هذه العمليات . وتتأثر هذه المفاوضات تماما بالأوضاع العسكرية التي تنتهي إليها المعارك ، بل لا نبالغ إن قلنا ، أن هذه المفاوضات تتم لتقنين هذه الأوضاع العسكرية في صورة وثائقية ، ولهذا يحرص عباقرة القواد على الاحتياط لهذه المرحلة بانتهاج الخطة التي تكفل لقواتهم الخروج في المعارك بصورة متوازنة ، فهذا التوازن ، هو الضمانة الحقيقية لكسب مرحلة المفاوضات التي تنتهي بها الحرب .

الفرع الثاني

الإعداد للحرب التقليدية

يعتبر الإعداد للحرب التقليدية أمرا معقدا بالمقارنة للإعداد لحرب العصابات مثلا، صحيح أن الإعداد لحرب العصابات يعتبر أمرا شاقا وخطرا كما سيمر بنا بعد حين إلا أن هناك فرقا كبيرا بين التعقيد والخطورة.

المبحث الأول

إعداد الجبهة الداخلية

والجبهة الداخلية هي ذلك الشق المدني من الدولة وينتظم في هذا الشق كافة الأفراد المدنيين الذين يعملون في الأعمال غير العسكرية .

فلم يعد من الممكن خوض الحروب إلا بعد إعداد الشعب لها إعدادا يؤهله لأن يكون أمينا على ظهر الطلائع العسكرية المحاربة في الميدان لتكون هذه الطلائع بدورها أمينة على أمانيه الشعبية المستهدفة من الحرب . ولهذا صار من الواجب إعداد الجبهة الداخلية وهو الأمر الذي يتحقق بثلاثة أمور هي :

١ - بلورة الأماني الشعبية .

٢- إعداد الغرف اللازمة لإدارة العمليات المدنية .

٣- تكوين فصائل المقاومة الشعبية والدفاع المدني .



المبحث الثاني

إعداد الجبهة السياسية

ويعتمد الإعداد السياسي أول ما يعتمد على تهذيب أهداف الحرب لتكون متوافقة مع القانون الدولي العام، وبعد أن تثق الدول في مشروعية أهدافها، فإنها تتجه إلى المحافل الدولية حيث تقوم بعرض قضيتها هناك، قاصدة بذلك إظهار مالها من حق، وما عليه عدوها من باطل، إذ بذلك تزداد قوتها بازدياد المؤيدين، وتنقص قوة عدوها بانصراف المشايعين.

المبحث الثالث

إعداد الجبهة الاقتصادية

ويعبر عن إعداد الجبهة الاقتصادية بتحويل الاقتصاد من مدني إلى حربي، ويتم ذلك بوسائل عدة منها توجيه معظم الموارد للمجهود الحربي بما يعنيه ذلك من تعطيل جزئي لبعض الخطط الاقتصادية المدنية. وكذلك توجيه السياسات المالية لتخدم من الإنتاج إلى الإنتاج الحربي المباشر، وكذا الحد من الاستهلاك وبناء المخزون الاستراتيجي اللازم .

المبحث الرابع

إعداد الجبهة الإعلامية

والتأكيد على أهمية هذه الجبهة وأنها أحد ركائز الحرب الناجحة ، قد صار من نافلة القول الآن . وأول الطريق لإعداد هذه الجبهة هو إعداد الكوادر الإعلامية الحرفية ، فهذه الكوادر المؤهلة والواعية هي العنصر الحي الذي يحيل الأجهزة والسياسات الإعلامية إلى واقع حي.

ثم يأتي بعد ذلك دور الأجهزة الإعلامية. وحين تقوم الدولة على استكفاء الكوادر الإعلامية، والأجهزة التعبيرية، والسياسات السليمة، فإنها تضمن لمقاتليها إذ يحاربون ظهرا محميا من الإشاعات الفتاكة والآراء الهدامة التي تبثها أجهزة الحرب النفسية المعادية طوال فترة الحرب.

الثورة المزيفة!

معتز زاهر



لا نزال نذكر جميعا كيف كان الناس فرحين بنزول قوات الجيش المصري إلى الشوارع يوم جمعة الغضب (٢٠١١/١/٢٨) بعد انسحاب الشرطة بعد العصر؛ إبان موجة الاحتجاجات التي بدأت في الخامس والعشرين من يناير.

قد اعتبرته الغالبية نصرا مؤزرا حيث إن الجيش لم يعهد منه الناس أذى مباشرا مثل ما كانت تفعل الشرطة مثلا من تعذيب لمواطنين في أقسام الشرطة، إضافة إلى أن الجيش قد نزل إلى الشوارع مطمئنا للناس ومسالما بل وفي صورة الحارس لهم.

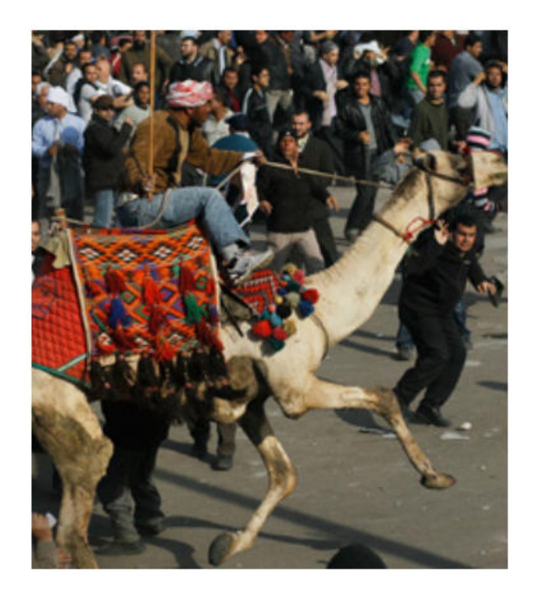
انتبه!

دائما يدخر النظام القائم في البلاد قوته الفتاكة بعيدا عن الانتهاكات المباشرة للمواطنين، ويحرص دائما أن تكون صورته زاهية ونقية من أي شائبة، ويعمل على ترويج بطولاته الزائفة.. والغرض ماذا؟

الغرض أن تكون هذه القوة الفتاكة المتمثلة في الجيش الملاذ الأخير الذي يستخدمه النظام للسيطرة على الشعب، فيشعر الشعب أنه في يد أمينة فيخضع ويستكين وتهدأ فورته وثورته.

بعكس ما فعل بشار الأسد في سوريا، حيث لم يحافظ أبوه ولا هو على النقاء الظاهري للجيش، فقد تلوثت يد الجيش بالجرائم المرتكبة بحق الشعب منذ الثمانينيات وأصبح سيء السمعة في نظر كثير من أفراد الشعب السوري، لذلك لم تفلح أي محاولة للاحتواء، ولا يزال السوريون المؤيدون للثورة يرونه عدوهم الأول ويقاتلونه بلا هوادة.

٢



مرت الأيام وجاءت موقعة الجمل (٢/٢/٢٠١١) وهاجمت مجموعة مسلحة بالأسلحة البيضاء ميدان التحرير لإخراج المتظاهرين منه؛ كانت مجموعة صغيرة جدا مقارنة بأعداد المعتصمين المهولة، ولم يوجد مع المجموعة ولو حتى مسدس ناري.. فقط أسلحة بيضاء وعصي. ووقف الجيش موقف المتفرج ولم يتدخل لحماية المعتصمين، بل تركهم ليواجهوا هذه المجموعة الصغيرة ذات التسليح المعدوم تقريبا.

احذر!

هناك علامات على أن النظام يدير معركة صورية ليخرج منها بنتائج في صالحه ما كانت لتتم بلا معركة.

الجيش عندما أراد فض اعتصام رابعة العدوية والنهضة لم يرسل قوات بعصى وأسلحة بيضاء، بل أرسل المدرعات والدبابات والجرافات ومئات الضباط والجنود، مع أن أعداد المعتصمين وظروف الاعتصام متشابهة إلى حد كبير.

فموقعة الجمل كأنها كانت الفرصة الأخيرة التي أعطاها الجيش لمبارك كي ينهي هذه الفوضى وإلا سيضطر هو للإمساك بزمام الأمور، ولكنها حتى لم تكن فرصة كاملة، فقد انسحبت الشرطة وحُرقت مراكزها ولم يعد أمام مبارك سوى الجيش والذي يبدو من سياسته حينها أنه قرر أن يكون حياديا، بالطبع هذا الحيادي

الذي ينتظر كالطير الجارح الذي ينتظر الفرصة السانحة لينقض على الضحية، ثم يتربص بالذي ضحى بها ليأكله أيضا فيما بعد.

كانت مصلحة الجيش أن يستمر الحراك كما هو ظاهر للعيان، حتى يفلح في التفاوض مع مبارك أن يترك الحكم له، ليكون ذلك انقلابا عسكريا ناعما على نظام مبارك الذي شاخ ولم يعد حتى مع عمالته كافيا لتحقيق المصالح الصهيوأمريكية في الشرق الأوسط.

فتخيل كيف كنت ترفع شعارات الثورة ضد النظام ويستخدمك آخر كأداة ليحقق انقلابا لصالحه، بينما أنت فرح مسرور بهذا النصر العظيم! يا له من قهر!



تمر الأيام ويأتي يوم التنحي (٢٠١١/٢/١١)، ويظهر عمر سليمان، رجل المخابرات المخضرم بنظام مبارك؛ ليعلن أن الرئيس حسني مبارك قد «قرر» أن يترك الحكم و»يكلف» الجيش بإدارة البلاد.

وتنطلق الزغاريد في كل مكان، ويحتفل التليفزيون الرسمي والجرائد الرسمية بهذه الثورة العظيمة، ويثني على الثورة قادة بلاد الشرق والغرب.. ويعلن الجيش الحداد على شهداء الثورة الأبطال.

ويغادر الثوار الميادين في جو من السعادة الغامرة بلا أي نصر "حقيقي" من وراء تلك الهبة الشعبية التي استخدمها الجيش في صالحه للتمكين لإمبراطوريته الاقتصادية، وقفز من سيطرته على أربعين بالمائة من اقتصاد مصر إلى سيطرة شبه كلية على الاقتصاد وعلى كل شيء.

لم يعر المتظاهرون أي اهتمام لمطالبة قلة قليلة جدا من الشخصيات -أشهرها الأستاذ حازم صلاح أبو إسماعيل- بالبقاء في الشوارع لحين اقتلاع النظام من جذوره لأن ما يحدث الآن هو انقلاب عسكري، ونظروا لهذه المطالبة نظرة تحقير وبدت في أعينهم أنها من باب نظرية المؤامرة، خاصة وأن قائلها محسوب على التيار الديني المعروف عند البعض أنه تيار ساذج غير محنك سياسيا.

إياك والنصر الشكلي!

أمور الثورات هي أمور جدية تماما وهي من القول الفصل الذي لا هزل فيه، تراقبها أجهزة مخابرات تقدر

بالعشرات وتنظر وتترقب لها الدول الكبرى والعظمى، خاصة إذا كانت في مصر رأس العروبة والإسلام، أو بمعنى أصح هكذا كانت؛ فلابد من أخذ الأمر بهذه الجدية الصارمة ومعرفة أن أنصاف الثورات مقبرة للثوار.

أي نصر قد تحقق حتى نبرح أماكننا؟ أليس هذا هو الجيش المصري الذي ترعرع وتربى على عين نظام مبارك؟ أليس هو من تأتيه المعونة الأمريكية حتى تضمن حفاظه على مصالح أمريكا وحماية إسرائيل من حدودها التي من المفترض أنها أخطر الحدود عليها لو أن هناك جيشا وطنيا؟ أليس هذا هو الجيش الذي نما وشاب على حراسة وترسيخ الحكم العسكري منذ حركة الضباط الأحرار مطلع الخمسينيات من القرن المنصرم؟ كيف نثق بهذه الفئة ونسلمها البلاد على طبق من ذهب؟

لكن لماذا حدث هذا؟



قد حدث لأن الانتفاضة الشعبية كانت بلا أي تخطيط، كانت مجرد غضب تمثل في خروج الناس إلى الشوارع وفي مخيلتهم النظام هو حسني مبارك والقيادات المشهورة في الحزب الوطني، وبالتالي إزالة الجيش لهؤلاء عن المشهد مؤقتا كان كفيلا بهدوء الغالبية العظمى من القوة الضاربة التي نزلت الشوارع، وبهذه الإزالة المؤقتة لرموز النظام قد نجح الجيش في أول تفتيت لقوة الشارع التي لا تنقاد لقيادة ثورية تحركها وتوقفها، بل نزلت الشارع بعشوائية وكذلك رجعت منه بعشوائية أكبر.

إذن الثورات لا تكون أبدًا عشوائية وبلا قيادة، إذا رأيت هاتين الصفتين فلا تصدق أبدا أنها ثورة، واعلم يقينا أن مآلها إلى الاحتواء، وأنه يتم استخدامك لتحقيق تغيير سياسي في البلاد لصالح الدولة العميقة ومن يدعمها من الخارج.

الثورة لابد لها من مناخ ثوري يتم خلاله نشر الوعي العام بأهدافها، حتى يترسخ عند جمهورها الغالب أنها تقوم لاقتلاع جذور النظام وإنشاء نظام جديد تماما نابع من الفاعلين في الثورة، وتقوم للقضاء على النظام القديم قضاء منجْزا حتى لا تبقي منه فردا واحدا، وتحرس اختياراتها بحرس ثوري مسلح يحميها من المواجهة الأكيدة مع النظام القديم، وبذلك تمتلك البلاد امتلاكا حقيقيا وتنتزعها من فك النظام العتيق، بلا شعارات مصالحة ولا سلمية ولا رأفة، بل بشعارات الحسم والقضاء على الخونة وعدم العودة إلا بنصر تام ليس فيه أدنى هزيمة.

أما بغير هذا ستكون النتيجة هبة شعبية ضعيفة ومحدودة، لن تخرج منها الحركة الثورية إلا مهزومة ومقطعة الأوصال، وستعد انتحارا للثوار والفكر الثوري لسنوات عديدة، وستفرز الأوضاع نظاما مستبدا أقوى وأشرس مما كان، تماما كالمضاد الحيوي غير الفعال الذي تعود عليه جسم الإنسان وصارت البكتريا تتغذى عليه بدلا من أن تنهار وتموت بسببه.

وهذا تماما ما حدث في مصر، حدث الانقلاب الدموي العسكري في ٢٠١٣، وقضى على الحركة الثورية بشكل كبير، وسيطر على مفاصل الدولة بالحديد والنار، وصار الثوار ما بين شهيد ومعتقل وهارب؛ فليتنا نعي الدرس ونوضح فشل التجربة لجيل ذكي منظم مبدع أكثر من جيلنا!